الرّحلَةُ الْجَوّية

فِي المَرْكبةِ الهَوائِيّة

(من شرقي إفريقية إلى غربيها)



يوسف اليان سركيس

عن كتاب جول غابرييل فيرن «خمسة أسابيع في منطاد»

(الجزء الثاني)

كتاب الدوحة

الرّحلَةُ الْجَوّية
فِي المَرْكبةِ الهَوائِيّة

يُوزَّع مجّانًا مع العدد (122) من مجلّة «الدوحة» - ديسمبر - 2017

عنوان الكتاب: الرحلة الجوية في المركبة الهوائية.. من شرقي إفريقية إلى غربيها (الجزء الثاني)

المؤلف: جول غابرييل فيرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس

الناشر :
وزارة الثّقافة والرياضة - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

العمل الفني للغلاف والصفحات الداخلية: للرسام الفرنسي إدوارد ريو (1833 - 1900)
الإخراج والتصميم: القسم الفني - مجلّة الدوحة

المواد المنشورة في الكتاب تُعبِّر عن آراء كتّابها، ولا تُعبِّر -بالضرورة- عن رأي الوزارة أو المجلّة.

الرّحلَةُ الْجَوّية
فِي المَرْكبةِ الهَوائِيّة

(من شرقي إفريقية إلى غربيها)

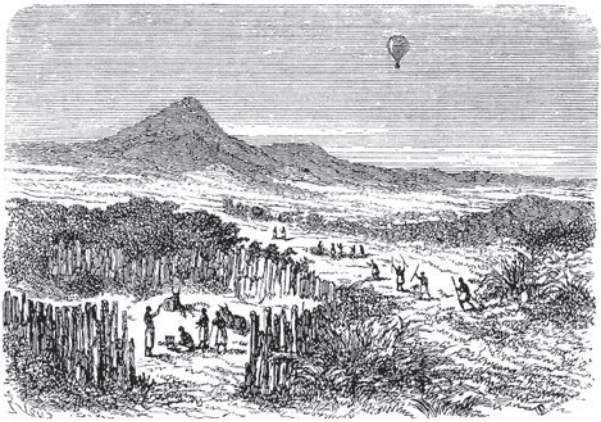
يوسف اليان سركيس

عن كتاب جول غابرييل فيرن «خمسة أسابيع في منطاد»

(الجزء الثاني)

(نسخة مُطابقة للطبعة الأولى بيروت 1875)

كتاب الدوحة



الفصل الثالث والعشرون

في مناقشة فلسفية وظهور السحابة في الأفق وظهور قبة ثانية
ومشاهدة آثار قافلة وبئر ماء في الصحراء

فلما أصبح الصباح وأشرق نور الشمس الوضاح ما زالت السماء رائقة نقية لا حراك في الفضاء، فارتفعت المنصورة إلى علو خمسمائة قدم وبالكاد انتقلت قليلًا إلى الجهة الغربية.

فقال العلَّامة: هوذا؛ نحن في قلب المفازة، وهاهي ذي بحور الرمل الطامة تحت أقدامنا؛ فيا للعجب كل العجب لم هذا النظام الغريب في الطبيعة؟ ولم يا ترى ينبت الزرع هناك بالقرب من حدود الرمال وهنا هذا القحل والجدب، مع أن الأراضي هي في خط عرضٍ واحد ومرمية بالأشعة نفسها؟!

قال ديك: أيها الخليل؛ إن علة ذلك ليس من شأنها أن تقلقني، وإن ما يهمني إنما هو الحال الذي نحن عليه فلا أهمية لخلافه.

قال العلَّامة: دعنا نتفلسف قليلًا على ذلك؛ فإن التفلسف لا يجلب علينا أذية.

قال ديك: هات نتفلسف ما تشاء؛ فإن الوقت طويل وبالكاد نمشي في هذه الأفلاء، فكأن الريح خاشية الهبوب أو راقدة في سرير الراحة.

قال يوسف: أما أنا فأبشركما أنه لا يطول بنا الحال، لأني أرى سحابة في الجهة الشرقية.

قال العلَّامة: نعم، وفي الصواب تكلم يوسف.

قال ديك: ولكن هل ترى نتملك هذه السحابة وتأتينا بمطر وريح نافعين؟

قال العلَّامة: سنرى ذلك في وقته.

قال يوسف: غير أن اليوم هو الجمعة؛ فقلما أثق بأيام الجمعة.

قال العلَّامة: إن شاء المولى سيذهب عنك اليومَ هذا الوهم الباطل.

قال يوسف، وهو يمسح العرق الوافر السائل من وجهه: حبذا، ولكن أفٍ؛ ما هذه الحرارة الشديدة؟!... نعم إن الحرارة نافعة، وخصوصًا في الشتاء، ولكن في الصيف على المرء أن يتحرز منها على قدر استطاعته.

فسأل الصياد فرغوسن وقال: هلَّا تخاف أن تضر حرارة الشمس القادحة بقبتنا؟

قال كلَّا يا صديقي لأن المادة الصمغية التي طلي بها القماش الحريري تحتمل حرارة عظيمة جدًا؛ فقد وصلت أحيانًا حرارة القصبة إلى مائة وثمان وخمسين درجة إنكليزية، ولم يتأثر منها غطاء القبة الداخلية الصغيرة.

أما يوسف فكان بصره حادًا ويرقب الأشياء بأحسن تمييز من المنظرات، فقال وهو ينظر إلى السماء: إنها سحابة في الحقيقة يا خليليَّ.

فكانت هذه السحابة متعمقة في السماء كثيفة متجمعة من غيوم صغيرة، ولكن لم تتغير قط هيئتها، ومن ذلك استنتج العلَّامة أن ليس فيها ريح تحركها.

وقد تراءت في الأفق منذ الساعة الثامنة صباحًا، ومع ذلك لم تقم قبالة الشمس إلَّا عند الساعة الحادية عشرة، ثم توارت وراء هذا الستار الكث، وفي تلك الساعة انفصل من هذه السحابة الغيم الأسفل مبتعدًا عن خط الأفق الذي تلالأ على إثر ذلك نورًا وبهاء.

قال العلَّامة: إن هذه السحابة منفردة فلا نثقنَّ بها انظر إليها يا ديك؛ أليست هيئتها كما كانت صباحًا.

قال ديك: لعمري لا تزال كما كانت، وعليه لا أرجو منها ريحًا ولا غيثا؛ عسى أنها تدخرهما لغيرنا.

قال العلَّامة: هذا ما أخشاه حالة كونها في علو شاهق.

قال ديك: أيها الصديق صاموئيل هلمَّ بنا نلاقي هذا الغيم الذي لا يريد أن ينشر علينا لواء سخائه.

قال العلَّامة: أظنُّ أننا لا نجني من هذا العمل ثمرة البتة، بل نزيد إنفاقًا للغاز ومن ثَمَّ للماء، ولكن نظرًا لحالتنا الحاضرة فلا يسوغ لنا أن نهمل شيئًا عسى أن يكون فيه خير لنا فهلموا بنا نطلع.

ثم أورى زناد لهيب القصبة فانتشرت الحرارة، وللحال صعدت القبة بقوة الإدروجن الممدَّد.

فوصل إلى السحابة في علو ألف وخمسمائة قدم ودخل في ضباب متكاثف وداوم حفظه برهة في تلك الطبقة، ولكن لم يجد فيها أدنى مهب ريحٍ حتى، وكانت خالية من الرطوبة وبالكاد ترطبت الأشياء التي لمستها، أما المنصورة فإنها لما التحفت بذلك البخار جرت مشيًا بأكثر سرعةٍ من الأول، ولكن بنوع زهيد جدًا، وهذه كانت الفائدة الوحيدة من الصعود إلى السحابة.

وفيما كان العلَّامة يتأمل بكدر ما جناه من النفع الطفيف في ارتقائه إلى الأعالي إذا بيوسف يصيح متعجبًا، وقال: واعجبا واعجبا!

فقال له سيده: وما الذي تراه؟!

قال يوسف: مولاي وسيدي ديك!... ما بالكما لا تنظران إلى الأمر العجيب الغريب؟!

قال ديك: وما هو؟... قل عاجلًا!

قال يوسف: اعلما أننا لسنا وحدنا في هذا الخلاء؛ بل هنا لصوص سارقة قد قلدونا في صنعتنا!

قال ديك لفرغوسن: وهل يا ترى أصابه جنون؟!

ثم شخص يوسف صامتًا متأملًا باندهاش وانذهال، فنظر إليه فرغوسن وقال: هل تكون الشمس قد فعلت في دماغه واختل منه العقل؟!

فقال ديك ليوسف: ألَا تقول لي أخيرًا؟

قال له يوسف: انظر يا ديك!

ودله على مركز في المسافة الجوية.

فصاح ديك مندهشًا، وقال: لعمري هذا مما يوجب الانذهال؛ تطلع يا صاموئيل!.. تطلع!

فقال العلَّامة بسكون: بصرت يا رفيقي بما تنظران إليه.

قال ديك: قبة مثل قبتنا، ومسافرون مثلنا أيضًا.

ففي الحقيقة كانت قبة هوائية تحوم في الهواء بمركبتها ومسافريها، وذلك بعيدًا عن المنصورة بنحو مائتي قدم، وهي تتبع الطريق التي هم سالكونها.

فقال العلَّامة: لم يبق لنا إلّا أن نقرأ عليها السلام بالدلايل والإشارات؛ فخذ يا ديك رايتنا وانشر ألوانها بإزائهم.

فالظاهر أن المسافرين المقيمين في تلك المركبة فكروا كما فكر هؤلاء في دقيقة واحدة لأن الراية ذاتها أعادت الإشارات والحركات نفسها التي أبداها الصياد.

فقال ديك: وما المعنى بذلك يا فرغوسن؟!

قال يوسف: إنما هم سعادين يهزءون بنا.

فقال العلَّامة ضاحكًا: المعنى به أنك تفعل هذه الإشارات لنفسك يا أيها الخل الوفي، وتأويل ذلك أننا نحن أنفسنا في تلك المركبة والخلاصة ليس تلك القبة إلَّا منصورتنا.

قال يوسف: سيدي من بعد أداء الاحترام الواجب لحضرتك أقول لك إني لآخذ كلامك بعين الصدق، بل أعده هزءًا منك.

فقال له العلَّامة: قف على طرف المركبة يا يوسف، وحرك ذراعيك فتتحقق من صدق مقالي.

ففعل يوسف ما أمره به سيده، وشاهد حركاته قد أعيدت تمامًا.

فقال العلَّامة: إنما هذا لعلع، وهو حادث بسيط من حوادث انعكاس النور، ومسبب عن تخلخل الهواء غير المتساوي، الحاصل في طبقات الجو، والسلام ختام.

قال يوسف: ولا أعجبَ عندي من ذلك.

وكأنه لم يَشَأْ أن يصدق هذا المقال، فراجع حركاته تكرارًا بأنواع مختلفة.

قال ديك: ولا أغربَ منه؛ فإنه يدهش النظر وقد قرت منا الخواطر لمشاهدة منصورتنا وجهًا بإزاء وجه؛ أَلَا تقران يا صديقَيَّ، وفقكما المولى، أنها ذات هيئة لطيفة وهيبة مُنيفَة؟

قال يوسف: كيفما فسرت وشرحت؛ فإن الحادثة من أعجب العجاب.

وما لبثت صورة القبة أن أخذت في الاندثار رويدًا رويدًا، ثم ارتفعت

السحابة إلى علو باسق، وهجرت المنصورة فلم تحاول هذه أن تتبعها، ومضت ساعة من الزمان وإذا بالسحابة قد توارت عن العيان.

وأما الريح الطفيفة فانتقصت قليلًا فقليلًا، وكادت تدخل حيز العدم، وعندها اقترب العلَّامة إلى الأرض آيسًا.

وقد كان منظر القبة سلا عنهم الهم والفكرة في أحوالهم، ولكن لما توارى عن البصر رجعوا إلى ما كانوا عليه من الأفكار المحزنة وهم يكابدون حرارة عظيمة جدًا.

وعند الساعة الرابعة بعد الظهر أشار يوسف إلى وجود شيء بارز فوق بحر الرمال، وما لبث أن عرفه جيدًا، وهو نخلتان نابتتان على مسافة غير بعيدة.

فقال العلَّامة: إذا وجد نخل فلا بدَّ من وجود نبع ماء أو بئر بالقرب منها، ثم أخذ المنظرة وأكد تخمين يوسف.

فصاح حينئذٍ قائلًا: هاهو ذا الماء والحمد لله هاهو ذا الماء؛ فلا شكَّ أنه واجد هناك، وكيفما سرنا فسنصل إليه في نهاية الأمر.

فقال يوسف: والحالة هذه؛ أيحسن لديك أن نشرب شربة لبينما نبلغ الماء؛ لأن الريح قاطعة منا النفس؟

قال العلَّامة: فلنشرب إذًا يا صاح.

فشرب ثلاثتهم ليترًا كاملًا، ولم يتبق لهم بعد إلَّا ثلاثة ليترات ونصف لا غير.

ثم قال يوسف: يا ما ألذَّ الماءَ وأنفعه؛ لعمري لم أذق قط في حياتي لذة في الشراب كاللذة الحالية!

قال العلَّامة: هذا ما يجديه الانمساك عن المنافع.

ولما كانت الساعة السادسة حامت المنصورة فوق النخلتين، فلما تأملوا بهما رأوهما شجرتين نحيفتين يا بستين شبه شبحٍ بلا لحم؛ لأنهما خاليتان من الأوراق، ومائلتان إلى الفناء أكثر منهما إلى البقاء.

أما فرغوسن فخالج صدره الاضطراب عندما حدق بصره فيهما.

ثم أبصروا تحت أقدامهم بحجارة بئر مركوزة بلا ترتيب، وقد ضربت أشعة الشمس القادحة تلك الحجارة، فكادت تحولها إلى رمال ناعمة جدًا، ولم يروا للرطوبة من أثر فانقبض قلب صموئيل من ذلك المنظر، وكان قد كشف لرفيقيه ما يضمره من الخوف لو لم يسمع تأوههما وهتافهما فانتبه ورأى عن بعد في الجهة الغربية خطًا طويلًا مرسومًا من عظام مبيضة وشاهد حول النبع كومًا من تلك العظام، فعلم من ذلك أن قافلة وصلت إلى ذلك الحد من الصحراء؛ فالذين كانوا ضعفاء فيها سقطوا على الرمل قليلًا فقليلًا، وأما الأشداء فبعد أن كابدوا أقصى التعب وجرُّوا أنفسهم إلى تلك العين قضوا عندها نحبهم، وذاقوا كأس حمام المرة.

فنظر المسافرون بعضهم إلى بعض، وقد علا الاصفرار وجوههم.

فقال ديك: لا ننزلَنَّ إلى هنا؛ بل فلنهرب من هذا المشهد المهيل الكبد فإن البئر هذه لا تحوى نقطة من الماء.

قال العلَّامة: كلاّ يا ديك يلزمنا أن نقف على الحقيقة لئلا تتشوش ضمائرنا فيما بعد ويدركنا الندم، فسيان إن قضينا ليلتنا هنا أو في محل آخر، وقد قام نبع ماء من زمن مديد في هذا المحل، فعسى أن يكون له أثر إلى الآن.

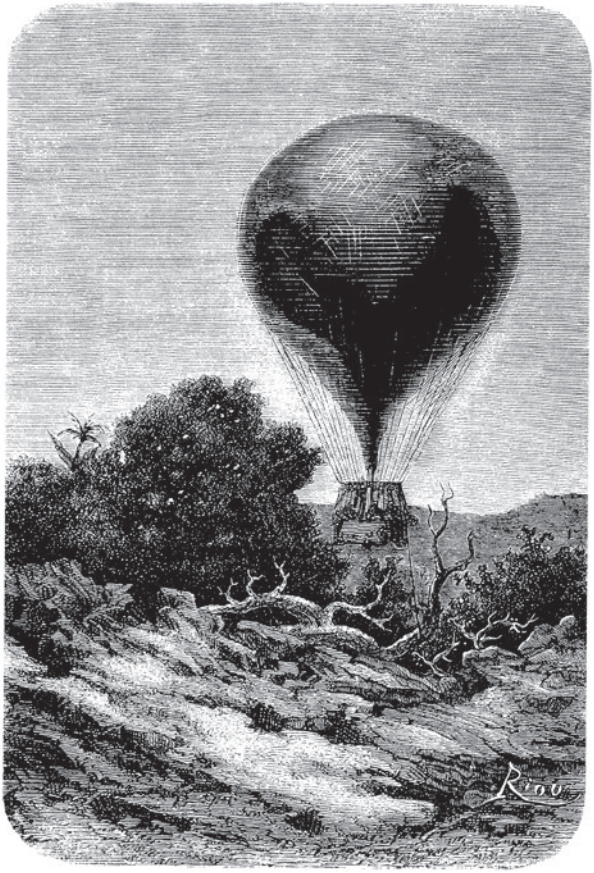
فحطت المنصورة على الأرض ووضع يوسف وديك كمية من الرمل موازنة لوزنهما ونزلا عن المركبة مبادرين إلى البئر، فدخلاها بدرج أمسى رملًا، ورأيا أن العين ناشفة من سنين عديدة، وحفرا قليلًا في الرمل الناعم فلم ينظرا أثرًا للرطوبة.

ثم طلعا من الجب متوجين بإكليل من العرق على جبينيهما مكسوري القلب والخاطر، والرمل إذ ذاك قد غطاهما فولت الشجاعة مدبرة وقام مقامها القنوط واليأس.

فلما نظر إليهما العلَّامة عرف قلة فائدتها من النزول إلى البئر، وقد كان عالمًا بذلك من قبل، وشعر في ذاته بأنه منذ الآن تقتضيه الحال أن توازي شجاعته ومروءته ثلاثة رجال.

وكان يوسف قد أتى بقربةٍ مُقَرَّنة فرماها وهو غضبان بين العظام المشتتة على الحضيض.

وعند العشاء مُدَّ سماط السكوت التام ولم يتفوه أحد بالكلام بل أكلوا جميعًا بكره شديد، مع أنهم لم يقاسوا بعد شدائد العطش ونوائبه، ولكنهم قانطون بالنظر إلى ما أقبل عليهم من المحن.



الفصل الرابع والعشرون

في العطش وتندم العلَّامة وانطفاء القصبة ومراقبة الصحراء الشاسعة
وانفراد العلَّامة وسقطته وما نواه يوسف من القصد الثابت

فلم تبلغ المسافة التي جازوها في النهار كله أكثر من عشرة أميال، وأنفقوا للمسير في تلك المدة مائة واثنتين وستين قدمًا مكعبًا من الغاز.

ولما كان السبت صباحًا تأهب المسافرون للرحيل، وبعد برهة أخذوا بالمسير.

ثم قال: عندنا ما يكفينا مشيًا مدة ست ساعات، فإذا عبرت هذه المدة ولم نكتشف بئرًا ولا عينًا فالله يعلم ماذا يصيبنا، فقال يوسف: إن الريح طفيفة جدًا يا مولاي.

وعندما نظر لوائح الحزن والكدر قد علت وجه سيده قال: أؤمل أنها ستهب عما قليل.

أما أملهم في مهب الرياح فكان باطلًا؛ إذ إن السماء رائقة صافية،

واشتدت الحرارة كثيرًا حتى إن الترمومتر الإنكليزي تحت ظل الخيمة دلَّ على الدرجة المائة والثالثة عشرة.

أما يوسف وديك فكانا مضطجعين؛ الواحد بجانب الآخر، وهما يحاولان الفرار من الفكرة في تلك الحالة الهائلة، سواء بالرقاد أم بالخدر، وقد استبان لديهما الزمان طويلًا مملًا لقلة شغلهما، ولا شيء يجلب الضجر والارتباك نظير البطالة؛ إذ لا يستطيع المرء أن يزيل عنه ذكر أكداره ورزاياه إلا بشيء من الاشتغال، ففي ذلك الوقت كان انشغالهما متوقفًا عن التفكر والتبحر في تلك الواقعة المفجعة الأكباد، وليس ما يلهيهما عن تصورها نصب أعينهما.

ثم عَلِقَ العطش يذيقهم مرَّ العذاب والشقاء، والعرق الباقي لم يكن من شأنه إلَّا أن يزيد كبدهم التهابًا، وفي الحق والصواب يدعونه أهل إفريقية حليب النمورة، وبالكاد كان باقيًا نحو لترين من الماء الساخن، فكان ثلاثتهم يحدقون بصرهم بتلك النقطات الثمينة دون أن يجسر أحد منهم أن يبل بها طرف ثغره؛ فيا لها من حالة هائلة ترتعد منها الفرائص، وتلتاع منها القلوب؛ إذ لم يبق معهم من الماء إلّا تلك الكمية الجزئية وهم مع ذلك لا يزالون في قلب الصحراء.

فغاص فرغوسن في لجة الأفكار، ودهمته الهواجس والقلق فلم يستطع أن يشحذ لها الأسنة للقتال فسأل نفسه قائلًا: يا ترى هل تصرفت حسنًا في أموري؟... أما كان يوافق غرضي لو حفظت ذلك الماء الذي حَلَلْتُه هدرًا إلى غاز الإدروجن لكي ألبث مستمرًا في العلاء؟... نعم إنني سرت بعض السير، ولكن ما هي المسافة التي جزتها؛ فإنها لا تستحق الذكر والاعتبار،

فلو بقينا في الوراء بمسافة نحو ستين ميلًا فما الذي كان يَضُرُّ بنا؛ حيث إن الماء فرغ الآن في هذا المكان، وإن قامت الريح ألا يا ترى تهب هناك كمهبها هنا؟ ولربما يكون هنا بأقل خفةٍ إذا هبت من الشرق. إلَّا أني مشيت طمعًا في نوال الأرب. ولكن ما أنفقته من الماء الكثير كان كافيًا لأن أستمر مدة تسعة أيام في هذه الصحراء؛ فما أطولها من تسعة أيام!... ومن يعلم ماذا كان قد طرأ في مدتها من الحوادث، غير أنه ربما لو حفظت الماء لوجب عليَّ الارتفاع بإلقاء شيء من الثقل، وعند نزولي كنت أفقد غازًا جزيلًا؛ فغاز القبة هو دم وحياة لها.

فتصادمت هذه الأفكار في عقله، فيما أنه يقبض على رأسه بيديه، متأملا مدة ساعات برمتها.

ولما كانت الساعة العاشرة صباحًا قال في ذاته لابدَّ أن أمتحن أمرًا في آخر الأمر لعله خير فها أنا ذا أصعد إلى العلاء لأستقصي طبقة تحوي مهب ريحٍ تدفع قبتنا إلى قدام، ولابدَّ لي من هذا الامتحان ولو أنفقت الماء الذي هو غاية حيلتنا.

وفيما كان رفيقاه راقدين أضرم نار القصبة واستدارت القبة لامتداد الإدروجن وارتفعت بخط مستقيم بما عظم من السرعة، فسعى العلَّامة في أن يجد مهبًا من عُلُوٍّ مائة قدم إلى علو خمسة آلاف قدم، لكنَّ سعيه ذهب هدرًا، ولم يستفد شيئًا وتبين لديه أن الريح عديمة الوجود، حتى وفي آخر حدود الجو.

وفرغ الماء أخيرًا وامتنع حفظ النار وانطفأت القصبة لنفاد الغاز، وأصبحت آلة بنزن لا فاعلية لها، ثم تقلصت القبة الهوائية وأخذت في

النزول رويدًا رويدًا على الرمل في نفس المكان الذي طلعت منه.

فانتصف النهار وهم في درجة 35 ْ19 طولًا و51 ْ6 عرضًا بعيدًا عن بحيرة شاد بنحو خمسمائة ميل، وعن جهات إفريقية الغربية بنحو من أربعمائة ميل ونيف.

فنزل ديك ويوسف إلى الأرض وذهب عنهما الخدر.

ثم قال الصياد: وقفنا إذًا يا خليليَّ.

فأجاب العلَّامة بصوت الهيبة: لابدَّ من الوقوف.

ففهم الرفيقان مآل كلامه، وكان سطح الأرض على مساواة سطح البحر لسبب انخفاضه هناك، ولهذا وقفت القبة في موازنة تامة وعدمت الحركة على الإطلاق.

وبعد أن وضعوا فيها رملًا موازيًا ثقلهم نزلوا إلى البر وهم غائصون في مفاوز الفكر، ولبثوا ساعاتٍ لا يتحادثون ولا يتفاوضون في أمر ثم هيأ يوسف العشاء، وكان لحمًا وكعكًا وعقب أن أكلوا شيئًا يسيرًا شرب كلّ منهم جرعة من الماء الساخن.

ولما جنَّ الليل وبدد الدجى ضياء النهار لم يسهر أحد لحراسة القبة، ولكن لم يرقد أحد لشدة الحرارة وانشغال الفكر، ولما أصبح الصباح أخذ فرغوسن نصف لتر الماء الباقي ووضعه جانبًا وقصد أن لا يمسوه إلَّا وقت الحاجة القصوى.

فما مضت برهة إلّا قال يوسف: أفٍ أواه لقد ضاق صدري من الحرارة

المتزايدة.

ثم تطلع في الترمومتر وقال: لا عجب من ذلك؛ فإن الحرارة في درجة مائة وأربعين.

فقال الصياد: إن الرمل يلهب الأعضاء ويجعل البدن كأنه خارج من أتون ناري يا رباه ما هذه الحال؛ فإننا لا نرى أثرًا لسحابةٍ في السماء، لعمري إن ذا مما ينزع العقل ويبلي بداء الجنون.

قال العلَّامة: لا نقطعنَّ حبل الرجاء يا رفيقيَّ؛ لأن مثل هذه الحرارة يعقبها دائمًا رياح عاصفات في مثل هذه النقطة من الكرة، ويكون قدومها سريعًا كالبرق اللامع، وإن كانت الآن السماء في صفاء ورواق عظيم فمع ذلك يمكن حدوث تغيير مهم بأقل من ساعة.

فقال ديك: ولكن لابد من أن يسبق ذلك دليل أو إشارة.

فقال العلَّامة: إني أرى ميزان الهواء مائلًا إلى انخفاض في الزيبق.

قال ديك: أجاب الله دعاءك يا خليلي صموئيل؛ لأننا قد تسمَّرْنا في هذه الأرض كطيرٍ مكسور الجناح.

قال فرغوسن: ولكن ههنا فرق بيننا وبين الطيور يا ديك؛ لأن أجنحتنا لا تزال غير مسومة، ولم يضر بها شيء، وأؤمل أن يتيسر لنا العمل بها بعد.

فصاح يوسف قائلًا: آه ثم آه من ريح تذهب بنا وتبلغنا إلى عين أو بئر، فحينئذٍ لا نعود نحتاج إلى شيء؛ فإن زادنا كافٍ، وبالماء ننتظر شهرًا بتمامه ولا نحتمل عذابًا، وأما العطش فهو شر مصيبة وبلية.

فلم يكن العطش وحده عاملًا على تعذيبهم، بل كان عقلهم مضطربًا لمراقبة الصحراء مراقبة دائمة، لأن الرمال كبحر غطمطم؛ ليس فيها تلٌّ ولا عوج ولا حصاة واحدة لتقف أنظارهم عليها، فقد جرح فؤادهم انبساط تلك الفسحة المتساوية السطح، وأصابهم بالداء المعروف بداء القفار، ولعمري إن النظر إلى زرقة تلك السماء غير المتغيرة والتأمل في اصفرار تلك الرمال الجزيلة المدى مما يفضي بالمرء إلى الهلع والرعب، وكانت حرارة الجو الملتهب نامية متزايدة، وكأنها بارتجاف لهيب الأتون المضطرم، فإذا ما تأمل العقل في ذلك الرواق البليغ خاب منه كل أملٍ من النجاة، ولم يجد بدًا من الهلاك في هاتيك الطلول، ولا يخال بذهنه ما من شأنه أن يفرج همه؛ لأن الاتساع المديد نوع من الأبدية.

ولهذا لما فرغ الماء عند المسافرين الثلاثة وهم مقيمون في تلك الصحراء الحارة أخذوا يشعرون بالتصورات الغريبة الخالية من الصواب، وقد كبرت عيونهم واضطرب بصرهم.

فلما رفرفت أجنحة الظلام وخيم الغسق عزم العلَّامة على أن يَنْقُضَ تلك الحالة المقلقة بسيرٍ سريع؛ فأراد أن يطوف تلك الصحراء مدة ساعات لا للاستقراء بل للمشي.

فقال لرفيقيه: هلما بي يا رفيقي لنسير مدة لأن المسير يجدينا نفعًا جزيلًا.

قال ديك: إنك تطلب مني أمرًا مستحيلًا؛ لأني لا أستطيع أن أخطو خطوة واحدة.

قال يوسف: أحبُّ إلي الرقاد يا مولاي.

قال: ولكن سيجلب عليكما الرقاد أو الراحة ضررًا يا رفيقَيَّ فانقضا إذًا هذا الخمود والارتخاء، وتعاليا معي نَمْشِ؛ ما بالكما لا تسمعان؟!

فلم يجبه رفيقاه عن سؤاله، ولذا ذهب وحده يمشي في تلك الليلة الشفافة المتلألئة بالنجوم والكواكب المرصعة في القبة اللازوردية، فرأى خطواته الأولى مضنكة له جدًا؛ إذ إنها خطوات إنسان واهن لم يمارس المشي من برهة طويلة، لكنه علم أنه يجني نفعًا من هذه الرياضة فسار بعض الأميال نحو الجهة الغربية، وأخذ عقله يتشدد وإذا فجأة أصابه داء الأوام، «هو دوار الرأس»، فظن في نفسه أنه على حافة الهاوية، وأن ركبتيه انثنتا، وألقت الصحراء في قلبه رجفة الرعب والهلع، فتوارت المنصورة عن عينيه في حلكة الظلام، وثقلت على رأسه أحمال الخوف والفزع، وهو المسافر المشهور بالشجاعة والجراءة فحاول الرجوع إلى الوراء ولكن كان سعيه باطلًا، ثم نادى فلم يجبه أحد حتى ولا الصدى، وسقط صوته في الفضاء كما يسقط حجر في هوة لا قياس لعمقها، ثم ارتمى على الرمل مضطجعًا خائر القوى، وليس له رفيق في وسط ذلك القفر الصامت المخيف.

وعند انتصاف الليل عاد إلى حواسه وهو بين يدي يوسف خادمه الأمين لأنه؛ أي يوسف، لما رأى أن قد طالت غيبة سيده أخذه القلق وهرول حالًا يتبع آثاره المطبوعة على الرمل بجلاء تام فوجده مغشيًا عليه.

ولما أفاق قال له: ما الذي أصابك يا مولاي؟

فقال له العلَّامة: ليس ذلك شيئًا، بل هو ضَعْفٌ وَقْتِيٌّ.

قال يوسف: نعم ليس ذلك شيئًا، ولكن انهض واستند علي لنرجع إلى منصورتنا.

فاتكأ العلَّامة على ذراع يوسف، وعاد في الطريق التي سلكها قبلًا.

فقال يوسف: لم خاطرت بنفسك يا نفسي بلا فطنة؟!

ثم قال ضاحكًا: وربما كنت تشلحت من اللصوص، ولكن مالنا ولهذا الحديث فلنتكلم بجدٍ.

قال العلَّامة: قل يا يوسف ما بدا لك؛ فإني مصغٍ لكلامك.

قال يوسف: لا بد من أن نعمد إلى عمل؛ لأن حالتنا لا تدوم على هذا المنوال أكثر من عدة أيام وإذا لم تَمُنَّ الريح علينا بمهبها هلكنا لا محالة.

فلم يأت العلَّامة بجواب.

فاستتلى يوسف كلامه قائلا: يجب أن واحدًا منا يبذل نفسه حبًا برفيقيه، ومن الصواب أن أكون أنا ذلك الواحد.

قال فرغوسن: وما المراد بقولك؟!... وما هو قصدك يا يوسف؟!...

قال يوسف: إنما هو قصد سهل جدًا؛ فإني آخذ معي زادًا وأمشي دائمًا إلى أن أبلغ مكانًا؛ ففي غضون ذلك إذا افتقدكما المولى بريح موافقة فتسافران ولا تنتظراني، وأما أنا فإذا وصلت إلى قرية أقضي مصلحتي ببعض كلمات عربيّة آخذها منك خطًا؛ فإما أني آتيكما بالمساعدة اللازمة، وإما أني أترك جلدي هناك؛ فما قولك دام فضلك؟

قال العلَّامة: إن قصدك خالٍ من التعقل والفطنة لكنه جدير بشهامة قلبك يا يوسف؛ فإن ذا الأمر مستحيل ولا نتركك تذهب عنا.

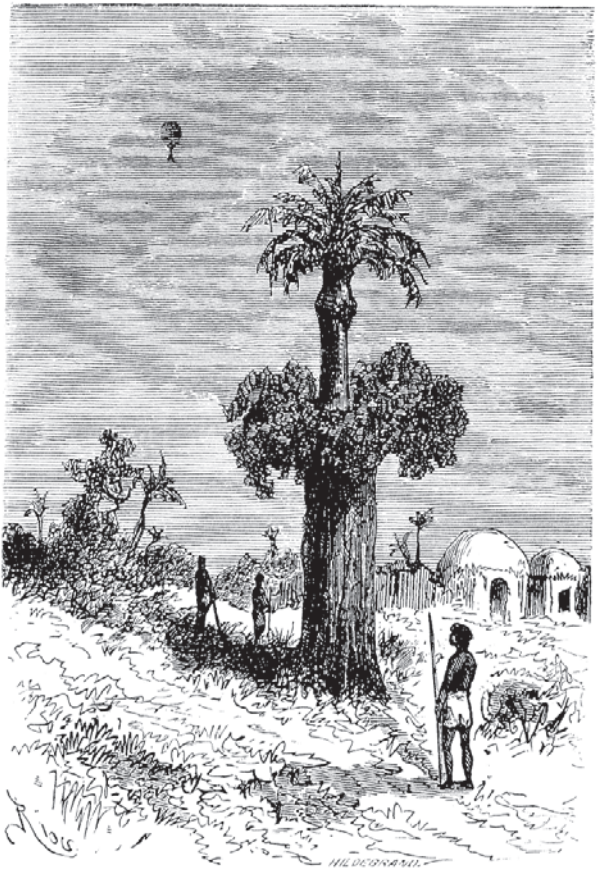
قال يوسف: سيدي لا بد من أن نمتحن أمرًا؛ فإن هذا لا يجلب عليك مضرة؛ لأني أقول لك تكرارًا إنك لا تنتظرني عند هب الريح، وفي حصر المعنى أنا أرجو النجاح في مصلحتي.

قال العلَّامة: كلَّا، ثم كلَّا يا يوسف؛ فلا يفترق أصلًا بعضنا عن بعض؛ لأن الافتراق يزيدنا غمًا على هم، فإنه قد كُتِبَ ما جرى لنا، وربما قد كُتِبَ أيضًا أنه سيحدث خلافه في المستقبل؛ علينا إذًا أن ننتظر بصبرٍ جميل.

فاصبر لضيق بك يومًا نزلا لم يلبث النازل أن يرتحلا

قال يوسف: فليكن كما قلت يا مولاي ولكن دعني أَقُلْ لك إني لا أصبر ما ناف عن يومٍ واحد؛ ها قد بلغنا يوم الأحد أو بالأحرى الاثنين؛ لأنها الساعة الواحدة من بعد انتصاف الليل، فإذا مضى يوم الاثنين ودخل يوم الثلاثاء ولم نمش باشرت قصدي لا محالة.

فما أجاب العلَّامة عن مقال خادمه، وبعد قليل بلغ المنصورة وجلس في قاربها بالقرب من ديك الذي كان غائصًا في بحر السكوت المطلق، ولو أنه غير نائم حقيقة.



الفصل الخامس والعشرون

في اشتداد الحرارة وفروغ آخر نقطة من الماء وليالي اليأس ومحاولة ديك قتل نفسه وهبوب السموم

فلما أصبح الصباح في اليوم الثاني كانت أول نظرة العلَّامة إلى زيبق الميزان فرأى أنه بالكاد انخفض انخفاضًا طفيفًا.

فقال في نفسه: ما من شيء جديد.

فخرج من المركبة وتطلع في الجو ليفحص حالة الهواء فلم يجد سوى الحرارة نفسها والنقاوة المألوفة في الجو وثبوت الحال على المنوال القديم من دون دليل ينبئ عن تَغَيُّرٍ قريب الأمد.

فصاح حينئذٍ قائلًا: وهل إذًا يجب علينا قطع الأمل على الإطلاق.

أما يوسف فكان صامتًا خائضًا في عمق أفكاره ومتأملًا بما صممه من القصد الثابت.

أما ديك فاستفاق من النعاس مريضًا وقد تشددت قواه الحيوية بنوع

خارق العادة؛ فكبله العطش بسلاسل نوائبه، وصده انتفاخ لسانه وشفتيه عن التفوه بالكلام.

وقد ذكرنا فيما مضى أن نقطات من الماء كانت لا تزال محفوظة في آنية والرفاق الثلاثة لهم علم بها فجعلوا يردونها في أفكارهم، وقلوبهم مشتاقة إليها اشتياقًا عظيمًا دون أن يجسر أحد على الارتشاف بها.

ثم أخذ بعضهم ينظر إلى بعض، وأعينهم زائغة تائهة، وقلوبهم مفعمة حرصًا وحشيًا، وكان ديك على الخصوص خاملًا كل الخمول لاستمساكه عما لا يطيق المرء الاستمساك عنه، فقضى النهار كله غائصًا في بحر الهذيان، وهو ذاهب آيب ويضج بأصوات البحة الخشنة، ويعض قبضة كفه وكأنك به قد تأهب لفتح عروقه ومص دمه.

ثم صاح قائلًا: ويلاه ويلاه من هذه البلاد!... بلاد العطش والجفاف، فالأصح أن تدعى بلاد اليأس والقنوط.

قال هذا وسقط على الأرض واهنا منحط القوى، ولم يُسْمَعْ له سوى صفير تنفسه بين شفتيه الظامئتين.

وعند المساء بُلي يوسف أيضًا ببدء داء الجنون؛ فخيل له أن الصحراء الشاسعة تحاكي بحيرة عظيمة فيها ماء رائق صافٍ، فجعل يرتمي مرارًا على تلك الرمال الملتهبة ليرتشف منها، وكان ينهض عاجلًا وشفتاه ملوثتان بالتراب.

فحينئذٍ كان يقول لها بغضب وحنق: ويلًا وتعسًا لك يا أيتها البحيرة المشؤومة؛ فإن ماءك مالح للغاية.

وفيما كان العلَّامة وديك متمددين لا يبديان حركة طرق يوسف فكر أن يأتي ويروي غليل ظمئه بتلك النقطات المحفوظة من العلَّامة إلى ساعة الضيق الأخيرة، فوثب على المركبة زاحفًا على ركبتيه وكشف الآنية الحاوية ما فضل من الماء، وإذ حدَّق فيها عينيه أخذها بيده وجعلها على ثغره.

ففي الساعة والحال سمع صوتًا قادمًا منقطعًا يصرخ ويقول: اسقني اسقني.

فما كان هذا إلَّا صوت الصياد الذي رأى يوسف يشرب الماء فدبَّ مقبلًا إليه وجثا أمامه على ركبتيه باكيًا، فتحرك قلب يوسف شجنًا وشفقةً وبكى هو أيضًا، وناول ديك الآنية فأفرغها الصياد في فيه إلى آخر نقطة منها.

ثم قال ليوسف: أشكر فضلك يا خليلي وعزيزي.

أما يوسف فلم يسمعه؛ إذ سقط على الرمل واهنًا وغاب عن حواسه.

فمن يا ترى يعلم ما جرى في تلك الليلة الهائلة ... ولما أصبح الثلاثاء استيقظ الرفاق الثلاثة، وكانت الشمس كمرشة تصبُّ نارًا عليهم، فرأوا أعضاءهم آخذة في الجف واليبس رويدًا رويدًا، ولما أراد يوسف أن يقوم على قدميه لم يستطع حراكًا، ولهذا أضحى لديه من المستحيل أن يتمم ما نواه من العمل.

ثم جال بعينيه حوله فشاهد العلَّامة جالسًا في المركبة منحط القوى، مكتف اليدين على صدره، وهو يشخص في المسافة شخصة أبله نظر إلى نقطةٍ خيالية، أما ديك فكان منظره يهيل البصر وهو يحرك رأسه ذات

اليمين وذات الشمال كوحش ضارٍ منحبس في القفص، ثم وقف فجأة وأحدق بسلاحه «القرابينة» الموضوعة في المركبة بالقرب منه.

وبعده نهض متشددًا بقوة خارقة للطبيعة وقال: آه ثم آه ثم أقبل راكضًا كأبله ومجنون، وأخذ القرابينة، وأحكم فوهتها على فيه.

فوثب عليه يوسف وقال له: سيدي ما بالك؟!

فقال الصياد شاهقًا: دعني واذهب عني.

وأخذ كلاهما يتصارعان ويتنازعان.

فقال ديك: رح رح عني وإلّا لقتلتك.

أما يوسف فلبث ناشبًا فيه بيديه وتصارعا برهة، ولم يلتفت إليهما العلَّامة، وفي غضون القتال أطلق الرصاص من السلاح بغتة فدوى الصوت في الصحراء، وعندها قام العلَّامة وأجال بصره حواليه.

وفيما هو على هذه الحال إذ تشدد بصره على الفور، ومدَّ يده نحو الأفق وصاح صارخًا: هناك هناك هناك!

وقد خالج تلك الألفاظ حركة حماسة شديدة، حتى افترق يوسف وديك عن بعضها، وجعلا يتطلعان إلى بعضهما.

فكانت الصحراء مضطربة كما يضطرب البحر ويتموج يوم تقصف فيه العاصفة، وقامت أمواج مزبدة من الرمال تنتشر ويلتف بعضها على بعض، وعامود سحابي آتٍ من جنوب الشرق، مستديرًا متقلبًا ساريًا

بسرعة عجيبة، والشمس إذ ذاك مستترة وراء سحابة كثيفة، فأرسل ظلها بساطه حتى المنصورة، وحبات الرمل الناعمة تكر كَرَّ الجزيئات المائعة، ولم يزل ذلك الموج الرملي مقبلًا إليهم، فأشرقت أنوار الأمل على قلب فرغوسن وتلألأت على محياه، ثم صاح قائلًا: نِعِمَّا!... نِعِمَّا!... هوذا السموم قد أقبلت!

فقال يوسف: ولم يفهم معنى ذلك: نِعِمَّا نِعِمَّا السموم!

فقال ديك بصوت الغضب واليأس: دع السموم تهب؛ فإنها تذيقنا كأس المنون.

فقال له فرغوسن: كلَّا يا ديك؛ فإنها تأتينا بكأس الحياة.

وجعل يرمي من المركبة ما كان فيها من الرمال.

ففهم أخيرًا رفيقاه، وشرعا يساعدانه في عمله، ثم جلسوا في المركبة.

فقال العلَّامة: والآن يا يوسف أكرم عليَّ بإلقاء نحو خمسين رطلًا من معدنك!

فبادر يوسف إلى إجراء أمر سيده، مع أنه شاعر بأثر أسفٍ زائل، وإذا بالقبة الهوائية تعلو عن الأرض وترتفع.

فقال العلَّامة: قد حان أوان ارتفاعك يا قبة الخير.

فأتت السموم بمهبها السريع كالبرق اللامع، وكادت لفورتها تسحق المنصورة وتلاشيها، وقد أمطرت عليها الرمال كَالْبَرَد.

فصاح العلَّامة إلى يوسف، وقال: ارمِ بعد من الثقل يا يوسف.

فألقى يوسف قطعة كبيرة من المعدن الذهبي.

وقال ها أنا ذا قد رميت؛ فليطرب منك الخاطر.

فارتفعت حينئذٍ المنصورة فوق فورة الهواء، ولما وصلت إلى العلاء انجذبت سابحة على ذلك البحر المزبد بسرعة لا حدَّ لها.

فلم يتكلم أحد من الرفاق الثلاثة، بل كانوا شاخصين ومتأملين، وقد برّدتهم ريح العاصفة.

وعند الساعة الثالثة خمد الاضطراب، وسقط الرمل على الأرض، وكوَّم فيها الروابي، وعادت السماء إلى رواقها الأصلي.

عندها وقفت المنصورة عن المسير، فحامت بالقرب من غوطة هي كجزيرة خضراء عائمة على سطح ذلك البحر الرملي.

فقال العلَّامة: هو ذا الماء!... هو ذا الماء!... ولا ريب في ذلك.

وللحال فتح اللولب الأعلى فانسرب جانب من الإدروجن، ونزلت القبة حتى لم تبعد عن الغوطة إلَّا بنحو مائتي قدم.

وأما المسافة التي جازها المسافرون في برهة أربع ساعات فبلغت مائتين وأربعين ميلًا؛ أي زهاء مسافة 100 ساعة.

وعند دنو القبة من الأرض نزل ديك ويوسف قافزين عن المركبة، فقال لهما العلَّامة: كونا على حذر، وخذا معكما البواريد!

فوثب ديك على قرابينته، وضبط يوسف بارودته، وتقدما سريعًا حتى وصلا إلى الأشجار، ودخلا تحت تلك الخضرة الرطبة فاستبشرا من ذلك بماء غزير، لكنهما لم يكترثا ببعض آثار حديثة عريضة رسمت في تلك الأرض الناعمة.

وفيما هما يمشيان إذ سمعا زئيرًا عن بعد نحو عشرين قدمًا، فقال يوسف: إنما هذا زئير أسد!

فقال ديك مغتاظًا: دعه يزأر؛ فإني أود معاركته!... ترى كم أننا أقوياء عند القتال.

فقال يوسف: ولكن حذارِ حذارِ! وليرشدك التأني والحرص، لأن حياتنا نحن الثلاثة متعلِّق بعضها ببعضٍ بخيط، فإذا ذهبت حياة الواحد حصلت حياة الآخرين في خطر.

فلم يُصْغِ ديك لكلام يوسف، بل تقدم كأسدٍ ضارٍ، وشرارُ الحماسة والجسارة تقدح من عينيه، وسلاحه مذخور في يديه؛ ففي ظل نخلةٍ كان سبع ذو ناصية سوداء مستكنًا كامنًا للقتال، فما إِنْ بصر بالصياد قفز ليثب عليه، ولكن بالكاد استوى قائمًا حتى بادرته رصاصة خرقت قلبه كالصاعقة، وجندلته على الأرض ميتًا.

فصاح يوسف قائلًا: عافاك الله عافاك يا سيدي! أما ديك فبادر إلى البئر عدوًا ونزل إليه على درج رطب، ثم تمدد أمام عين ماء بارد وغمس شفتيه فيه بلهوجة، ثم حذا حذوه رفيقه يوسف، ولم يعد يسمع لهما سوى لعق الماء ليرتويا من شدة ظمئهما.

فبعد أن شرب يوسف تنفس وقال: حذارِ حذارِ يا ديك! لا تطمعنَّ في الشرب! فإن الطمع ضرّ ما نفع!

أما ديك فلم يلتفت إليه، بل ما زال يروي غليل عطشه، وقد غطس في ذلك الماء اللذيذ رأسه ويديه، وكأنه يحاول الثمل بمثل تلك الخمرة.

فقال يوسف: وسيدي فرغوسن هلَّا نفتكر فيه!

فما انتبه الصياد إلَّا عند ذكر العلَّامة فرغوسن، وللحال ملأ آنية كان قد أحضرها معه وأراد الطلوع على درج البئر.

فاندهش اندهاشًا عظيمًا؛ إذ وجد نافذة البئر قد سدها جسم عظيم هائل كثيف جدًا، ثم ارتد يوسف نظيره؛ إذ كان تابعًا له.

فقال حينئذٍ: ها قد سجنا في شر الحبوس!

قال ديك: ويلاه! ما المعنى بذلك، وما هذا الأمر؟!

فما فرغ من كلامه إلَّا سمع زئيرًا، فعرف وقتئذٍ من هو ذلك العدو الباسل السادُّ مدخل البئر.

فقال له يوسف: إنه سبع.

قال ديك: كلَّا؛ بل هي لبوة نحس الله طالعها، ولكن فلتصبر قليلًا؛ فعلي بتدبيرها.

ثم جعل يذخر سلاحه بسرعةٍ ونشاط.

وما مضت برهة إلَّا أضرم النار، فكان الحيوان قد توارى عن الأبصار.

فقال لرفيقه: هيا بنا هيا!

فقال يوسف: كيف نطلع وبعد لم تقتلها رصاصتك؟! لأنها لو كانت ماتت لتدحرجت إلى هنا، وهي الآن واقفة خارجًا، ومتأهبة لتثب على من يخرج منا أولًا؛ فهو يكون فريستها ونصيبها.

قال الصياد: وما الحالة إذًا؟! وهل نلبث في هذه البئر محبوسين ورفيقنا فرغوسن ينتظرنا بفروغ صبر؟!

قال يوسف: فلنجذب إلينا الحيوان؛ خذ بارودتي وأعطني سلاحك!

قال ديك: وما مرادك أن تصنع؟

قال: سترى الآن.

فأخذ يوسف بردته وجعلها على رأس السلاح، وأطلعها إلى فوق كطعمة للبوة، فهجمت اللبوة، وكان ديك يترقبها فضربها برصاصةٍ أصابت كتفها، فتدحرجت حينئذٍ على الدرج وهي زائرة، وقلبت يوسف فظنَّ هذا أنها غرزت في جسمه براسنها لتفترسه، وإذا بضربةٍ ثانية أصابت اللبوة، فكان إذ ذاك فرغوسن قد ظهر على نافذة البئر وبارودته معه، والدخان منها متأصد، فزحف يوسف من تحت اللبوة، وجاز من فوق جسمها وأعطى مولاه فرغوسن آنية الماء، وفي رمشة عين رفعها العلَّامة إلى فيه وأفرغ نصفها، وحينئذ أسدى المسافرون الثلاثة شكرًا جزيلًا من صميم الفؤاد إلى عناية الرحمن التي حفظتهم من شر الغوائل، ونجتهم بنوع عجيب من كوارث الحدثان.



الفصل السادس والعشرون

في الليلة المبهجة وقصة جمس أبروس وانخفاض البارومتر وطلوعه
والتأهب للرحيل وثوران الزوبعة

فكانت ليلة مبهجة تطرب الخاطر؛ إذ قضوها في روضةٍ أريضة ناضرة تحت ظل الشجر، بعد أن تناولوا طعامًا لذيذًا قوَّى أبدانهم، ولم يهملوا شرب الشاي والعرق الممزوج بالماء.

وكان قد طاف الصياد تلك الغوطة بجميع آفاقها، واستقرأ سائر أجماتها وأدغالها، فلم يجد في ذلك الفردوس الأرضي ذاتًا حيوية، وإذ اطمأنَّ تمامًا قد رقدوا جميعًا ملتحفين بأغطيتهم، وذاقوا في وسنهم لذة الراحة، وولى عنهم مدبرًا ذكر الغموم والبلايا الغابرة.

ولما كان الغد، وهو السابع من شهر أيار، أشرقت الشمس بأنوارها الساطعة، فلم يحترق كثيف الشجار والآجام الملتفة المظللتهم بظلها، وقصد المسافرون الاستراحة في تلك الروضة، منتظرين هبوب الريح الموافقة، ولم يصدهم عن ذلك مانع؛ إذ كان زادهم جزيلًا وافرًا، أما

يوسف فنقل أدوات مطبخه إلى تلك الجنينة، وكان يشكل طبخ الأطعمة ويبذر الماء بلا توفير ولا اكتراث.

فقال الصياد: يا للعجب من هذا الفرج العجيب بعد ذلك الضيق! وهذه الأفراح بعد تلك الغموم والأتراح! وهذا الريعان بعد ذلك المحول! وهذا الغنى بعد ذلك الفقر! فلله دَرُّ من قال:

رأيت الدهر مختلفًا يدورُ فلا حزن يدوم ولا سرورُ

ولعمري؛ لقد ناهزت افتقاد مخيلتي في تلك الساعة الهائلة!

فقال فرغوسن: لولا يوسف ما كنت الآن تحدثنا عن اختلاف أحوال الدهر وانقلابها، وإقبال الدنيا وإدبارها.

فمدَّ ديك يده إلى يوسف، وقال له: خليلي وصديقي! لا شُلَّت يداك المحسنتان!

فقال يوسف: لا يحمل الأمر مثل هذا الشكران؛ فعليك أن ترد لي العوض إذا مست الحاجة إلى ذلك، غير أنه أحبُّ إلي ألَّا أحتاج إلى مثل تلك المعاونة.

قال فرغوسن: يا لضعف طبيعتنا! وما أسهل انحطاطَنا لأمر طفيف!

قال يوسف: ألعلك مشير إلى القليل من الماء الذي نتلف بدونه؛ فهذا دليل على أن الماء لعنصر كلي الضرورة لحياة الإنسان.

قال فرغوسن: لا ريب في ذلك، والذين يحرمون الأكل يحتملون عدمه أكثر من الذين يحرمون الشرب.

قال يوسف: نعم هذا صحيح؛ إذ إنه عند الضرورة يأكل الإنسان كل ما يصادفه، حتى وشبيهه ولو كان ذا الطعام مما لا تحتمله المعدة بسهولة.

قال الصياد: إن البرابرة لا يفوتهم هذا الأمر، ولا يصعب عليهم.

قال يوسف: أجل، ولكن هم متوحشون وبرابرة، وقد تعودوا أكل اللحم النيِّئ فهذا مما تشمئز منه طبيعتي غاية الاشمئزاز.

قال العلَّامة: في الحقيقة؛ إن هذا مما تنفر منه الطبيعة نفورًا شديدًا، ولهذا لما حمل إلى أوربا السواح الذين دخلوا بطون إفريقية الأخبار عن بعض أقوام برابرة كانوا يقتاتون بلحم غير ناضج، فلم يؤخذ كلامهم على محمل الصدق، وفي مثل هذه الظروف، وقع لجمس بروس حادث غريب ومضحك جدًا.

فقال يوسف وقد تمدد باسترخاء على الخضرة الغضة: احك لنا هذا الحادث؛ فإن لنا وقتًا لنسمعه!

قال فرغوسن: سمعًا وطاعةً... اعلما، وفقكما المولى، أن جمس بروس رجل اسكتلندي من إقليم استرلينك، وقد طاف بلاد الحبشة كلها حتى وصل إلى بحيرة تيانا قصدًا في اكتشاف عيون النيل، وذلك من سنة 1768 إلى سنة 1772.

ثم رجع إلى بلاد الإنكليز ولم يشهر فيها رحلاته إلَّا سنة 1790، فلم تتصدق أخباره عن أقوام تلك البلاد، بل أدخلت في طي الخرافات والخزعبلات، وعلى الخصوص من حيث إن أخلاق الحبشة وأطباعهم الغريبة تنافي الطباع الإنكليزية، وتختلف عنها اختلافًا عظيمًا، ومن جملة

ما رواه جمس بروس أن شعوب إفريقية الشرقية تأكل لحمًا غير ناضج.

فهاجت هذه الرواية قومًا جزيلًا، ولم يرتض أحد أن يصدقها، ولما كان بروس على جانب من الشجاعة وحدة الطبع اغتاظ كثيرًا من شك الناس في كلامه، وفي ذات يوم كان رجل من بلاد وطنه جالسًا في قاعة ادنبرج فأخذ يعيد على سماعه؛ أي سماع بروس، المقالات نفسها التي اعتاد على المزاح بها أهل تلك المحلات ضحكًا على روايات بروس، وصرح أمامه بصوت عالٍ أن أكل اللحم النيِّئ هو من المستحيل ولا يمكن تصديقه، فلم يجاوبه بروس عن كلامه، بل خرج برهة ورجع إليه بقطعة من اللحم غير الناضج بعد أن غمسها بالملح والبهار على نسق الإفريقيين، ثم قال له: سيدي لقد سببت لي إهانة عظيمة، وشتمتني بإظهارك لي شكًا فيما رويته، وبزعمك أن ذا من المحال؛ فتأكيدًا لصدق كلامي أجبرتك على أكل هذه القطعة اللحمية غير الناضجة؛ فإما أنك تأكلها وإلَّا...

فخاف الاسكتلندي حينئذٍ وأذعن لأمر بروس، ولما تناول قطعة اللحم كشر عن أسنانه دلالة على اشمئزازه ونفوره. أما بروس فما زال محافظًا على استكانته ورواقه، ثم قال: ولنفرض سيدي أن القضية التي نحن في صددها غير صادقة؛ فمن الآن وصاعدًا أقله لا عدت تقول إنها من الأمور المستحيلة.

فقال يوسف: نعم الجواب جواب بروس؛ فلو كان أصاب ذلك الرجل تخمة من تناوله اللحم النيِّئ لكان قد نال جزاءه، ولكن يا ترى إذا رجعنا إلى بلادنا وشك الناس في رحلتنا...

قال فرغوسن: فماذا تصنع حينئذٍ؟!

قال يوسف: إني سأطعم الذين يشكون في رحلتنا قطع المنصورة بلا ملح ولا بهار.

فضحك الرفيقان من ألفاظ يوسف المزاحية، وهكذا مرَّ النهار بأحاديث لطيفة، ثم عاد إليهم الأمل مع القوة، ومع الأمل الجرأة، وأخذ الماضي بالاضمحلال تجاه المستقبل بسرعة عجيبة.

وقد عز ليوسف السكنى في ذلك المأوى المطرب، وودَّ لو أنه لم يكن مضطرًا إلى هجرانه أصلًا؛ إذ أصبح لديه ذلك المكان كمملكة أحلامه، وظن بنفسه أنه مستقرٌّ في نفس بيته، ثم طلب من سيده أن ينبئه عن مركزه، وسطر في سجل سفرته أنه في الدرجة 43 15 طولًا و32 8 عرضًا، أما ديك فلم يحزن سوى على أمرٍ واحد، وهو عدم تمكنه من الصيد في ذلك الغاب، وساءه خلو محطهم من بعض الحيوانات الكاسرة.

فقال العلَّامة: كأنك يا عزيزي ديك نسيت حالًا ذاك الأسد وتلك اللبوة؟!

فقال ديك، بصوت الازدراء: هذا شيء لا يُذكر، ولكن في الواقع إن وجود ذينك الوحشين اللذين أذقناهما كأس المنون مما يجعلنا نخمن بقرب بلادٍ أكثر خصبًا وريعانًا.

قال فرغوسن: إن برهانك يا ديك غير سديد؛ لأن هذه الحيوانات تجوز غالبًا مسافات شاسعة لتضورها من الجوع والعطش، والأجدر بنا أن نكون على حرص وحذر في الليلة المقبلة ونضرم النيران لئلا تدهمنا داهية.

قال يوسف: وهل نضرم النيران لتزداد حرارة على الحرارة الحاضرة، ومع ذلك فلا بأس من إضرامها وفاقًا لمرادك، ولكني عند قطعي وإحراقي تلك

الأشجار البهية الجزيلة النفع فلا بد لي من الشعور بغم باطن وتأسف.

قال العلَّامة: حاشا لنا أن نحرق الغاب بأسره، فلنحافظ عليه ما أمكنا، حتى إذا بلغه غيرنا يجد فيه ملجأ وسط الصحراء.

قال يوسف: نعم القول، ولكن هل تظن يا سيدي أن هذه الروضة عرفت من المسافرين؟

قال العلَّامة: لا شك في ذلك؛ لأنها مثوى لقوافل المسافرين في أواسط إفريقية، فلو أتونا الآن زائرين ما سررت إلَّا ما قلَّ حسبما يُرَى لي.

قال يوسف: وهل يوجد بعد في هذه الأقطار من أقوام نيام نيام البالغين في التوحش؟!

قال العلَّامة: لا ريب في ذلك؛ إذ إن هذا الاسم يعم جميع الأقوام الحالِّين في هذه الأقاليم، وجميعهم ذوو عوائد متماثلة.

قال يوسف: أفٍّ أفٍّ، ومع ذلك فإن هذا أمر طبيعي؛ لأنه لو كان أهل البدو على ذوق أهل الحضر فأين يكون الفرق بين كليهما؛ مثلًا... إن هؤلاء الأنام الأفاضل، أعني بهم البرابرة، لا يقتضي لهم التوسل والترجي ليتلقفوا القطعة اللحمية التي ابتلعها الاسكتلندي المذكور آنفًا، بل والاسكتلندي بعينه.

وبعد أن قال يوسف هذا ذهب يورث النار لحراستهم في الليل، لكنه لم يشعل إلَّا قليلًا من الحطب، وذهب ذلك الاحتياط هدرًا؛ إذ لم يقع شيء يكدر صفو رقادهم ويقلقهم أدنى قلق.

وفي الغد لم يتغير الهواء، بل استمرَّ على استكانته وهدوه، وما برحت القبة الهوائية عديمة الحركة، ولم تتذبذب أصلًا لتدل على أدنى نسمة في الجو.

فأخذ الهم يشمل قلب فرغوسن من جراء تلك الحال لأنها إذا طالت على ذلك المنوال فسينفد زادهم، وفيما كانوا سابقًا محتاجين إلى الماء أصبحوا حاليًا في غاية الاحتياج إلى الطعام، وذهبوا فريسة الجوع الكلبي.

لكنه نظر إلى ميزان الهواء فرأى فيه انخفاضًا كثيرًا فاطمأن باله وهدأ روعه، لأن انخفاض الزيبق دليل واضح على تغيُّر قريب في الجو، فعزم على أن يتأهب للرحيل، وأن يصبر منتهزًا الفرصة الأولى عند مهب الريح؛ فلذا ملأ صندوق إذخار الغاز وصندوق ماء الشرب، ثم أخذ يوازن القبة الهوائية، فاضطر يوسف إلى أن يبذل جانبًا عظيمًا من معدنه الغالي القيمة، ولو أن الطمع عاوده مع عودة الصحة والقوة فتدلل كثيرًا قبل أن يُذْعِنَ لسيده. أما هذا؛ أي فرغوسن، فبين له أنه لا يستطيع حملان ثقل عظيم. وجعله يختار ما بين الماء والذهب، فلم يعتم أن يوسف ألقى على الرمل كمية وافرة من حجارته العزيزة.

ثم قال: هذه ذخيرة مذخورة لمن يأتي بعدنا من المسافرين؛ فإنهم يدهشون عندما يجدون كنزًا في مثل هذا المكان.

قال الصياد: وإذا أتى عالم في الصدفة، وعثر على هذه الحجارة المعدنية، فماذا عساه يظن بها؟

قال العلَّامة: كن على يقين يا صديقي أن تعجبه، وسيكون ذلك عظيما،

ولا بد أنه يشهر ذلك التعجب في صحف ومُيَاوَماتٍ عدة بكلام مطول جدًا، وسيأتي يوم نسمع فيه عن مصادفة طبقة معدنية ذهبية في وسط رمال إفريقية.

قال ديك: ويكون يوسف سبب هذه الحادثة.

فتبسم يوسف لهذا المقال، وعزَّى فؤاده على ما فقده من المال الوفير؛ إذ تصور في باله أنه يكون سببًا لانخداع أحد العلماء، وشحنه كتبًا بأوهامه الباطلة، ثم انتظر العلَّامة تغيرًا في الهواء بفروغ الصبر فيما بقي من النهار، لكنه خاب أملًا؛ إذ اشتدت الحرارة، ولولا ظل الأشجار لذاقوا حرًا لا يطاق، ووصل الترمومتر في الشمس إلى درجة 149 إنكليزية، فكان أجيج الرمضاء يجري في الجو مجرى السيول، وبلغت الحرارة أقصى درجةٍ مما صادفه السواح في الصحراء.

فعندما جن الليل أقام يوسف سور الحصار كما في الأمس، ولما كان العلَّامة وكنادي ساهرين؛ كلّ منهما في وقت حراسته، لم يحدث قط شيء جديد، ولكن لما كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل، ويوسف إذ ذاك سهران في دوره انخفضت الحرارة على البغتة، وتجلببت السماء بجلباب السحاب والغيوم، واحلولك الظلام.

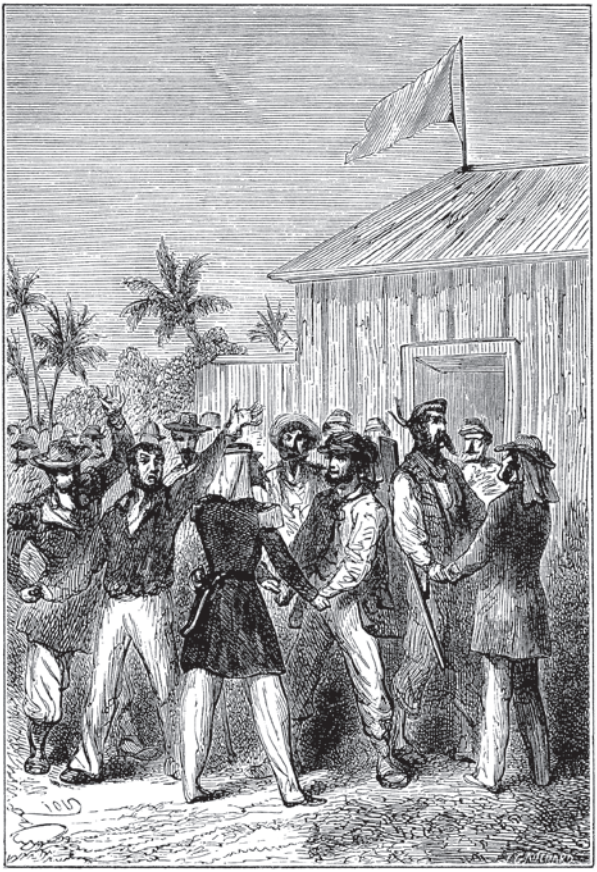
فصاح يوسف في الحال إلى رفيقيه إيقاظًا لهما من الرقاد، وقال لهما: انهضا انهضا؛ فقد أقبل الهواء!

قال العلَّامة وهو ينظر إلى السماء: حان أخيرًا الأوان، غير أن هذه زوبعة؛ فلنسرع إلى المنصورة مبادرين!

فكان لا بد من الإسراع إلى المنصورة؛ لأنها كانت مائلة لشدة الزوبعة، وجارة المركبة على الرمال؛ فلو كان قد أُلقِيَ شيء مما حوته المركبة من الثقل لطارت القبة إلى الجو، ولخيبت منهم كل أملٍ في الظفر بها.

أما يوسف النشيط فقد عدا عدو خيل السباق وأوقف المركبة، فيما كانت القبة متسطحة على الرمل، ومناهزة الانخراق، ثم جلس العلَّامة في موضعه، وأضرم القصبة ورمى ما زاد عنده من الثقل.

فألقى السواح نظرة أخيرة إلى أشجار الغوطة التي كانت تنثني من ثوران الزوبعة، وذهبوا متوارين في ظل ظلام الجو، مع هبوب الريح الشرقية في علو مائتي قدم عن الأرض.



الفصل السابع والعشرون

في رأي أحد علماء الفرنسيس والمرور بمملكة أداموفا وجبال أتلنتيكا
ونهر «بنوه» ومدينة يولا وجبل باجلة وجبل منديف

وعندما رحلت القبة أخذت تسير مسيرًا سريعًا جدًا، ولطالما تمنى السواح الابتعاد عن تلك الصحراء التي كادت تدفنهم في رمالها، وتوليهم الويل والتعس.

ولما كانت الساعة التاسعة والربع صباحًا شاهدوا حشيشًا يتمايل في تلك الرمال، فاستدلوا بها على أن الأرض قريبة منهم، كما استدلَّ على قرب الأرض ذلك الرجل الشهير الذي اكتشف بلاد أمريكا؛ أعني به خرستف كولمبو، وبصروا بنباتات خضراء تبرز ما بين الحصى المشيرة إلى قرب الصخور والجبال وكانت قصيرة جدًا كأنها تخشى الظهور بإزاء الرمال المحيطة بها.

ثم رقبوا في الأفق آكامًا معوجة، لكنهم لم يميزوا رسمها لما على قمتها من الغيم، وعلى كل حال كان المنظر السابق آخذًا في الزوال والاضمحلال.

فقرأ العلَّامة السلام على تلك الأرض الجديدة، وقلبه إذ ذاك مفعم فرحًا وابتهاجًا، وكاد يصبح كالبحري الرقيب في السفينة: هو ذا الأرض هو ذا الأرض! ثم مضت ساعة وتراءت تلك الأماكن لأعين العلَّامة بمنظر وحشي، لكنها لم تكن متساوية السطح وجرداء كالأولى، بل كان أفق السماء البعيد ينتقش بصورة بعض أشجار.

فقال الصياد: قد وصلنا إذًا إلى بلادٍ متمدنة.

قال يوسف: ما هذا الكلام؟ فإنه بعيد عن الإصابة؛ إذ لم نر حتى الآن أهلًا لهذه البلاد.

قال فرغوسن: لا يطول بنا المجال حتى نرى سكانًا؛ إن بقي سيرنا على ما هو عليه.

فقال يوسف: سيدي! هلَّا نزال في بلاد العبيد والسودان؟!

قال فرغوسن: بلى حتى نبلغ بلاد العرب.

قال يوسف: ألعلهم العرب العرباء أصحاب الآبال؟

قال فرغوسن: كلَّا؛ ليس من الآبال في هذه المحال إلَّا ما قلَّ جدًا، وإذا طلبتها لوجدتها في الجهة الشمالية بدرجات.

قال يوسف: قد ساءني هذا الخبر.

قال فرغوسن: ولماذا يا يوسف؟!

قال يوسف: لو انقلبت الريح وصدتنا عن السير لكانت الآبال تجدينا

نفعًا جزيلًا.

قال العلَّامة: وكيف نفعتنا؟!

قال يوسف: سيدي قد طرقني فكر، وهو أننا نقطرها في المركبة لتجرنا ونحن فيها؛ فما قولك يا سيدي؟

قال العلَّامة: قد طرق هذا الفكر غيرك قبل أن تأتي به؛ فإن أحد علماء الفرنسيس، أصحاب العقل والذكاء[1]، ألف حكاية وذكر فيها مركبة مَقُودةً بجمال، ثم وثب عليها أسد وافترسها وابتلع معها الحبل الضخم الذي يربطها بالمركبة، وأخذ في جر المركبة، وهلمَّ جرًا؛ ألا ترى يا يوسف أن السفر على هذا النسق تَخَيُّل من الطراز الأول، ولا مناسبة له من نوع مسيرنا.

فلما رأى يوسف أن رأيه أتى في بال غيره قَبْلَه خَجِلَ واختضع، ولكنه أخذ يفتكر في حيوان يستطيع أن يفترس الأسد، ولما لم يجد من له سطوة على سيد البهائم رجع ينظر إلى البلاد ويتأمل هيئتها وشكلها وما تحويه من الغرائب.

فشاهد بحيرة ذات سعة وُسْطَى، وحولها آكام لا تستحق أن تدعى جبالًا، ورأى أودية كثيرة نضرة، وفيها الأشجار المتنوعة الأجناس ملتفا بعضها ببعض، وهناك الإيلانس، وهو جنس من النخل، ذو أوراق عظيمة يبلغ طولها نحو خمس عشرة قدمًا، وساقها متنبر بالأشواك الحادة، والروائح الزكية تفوح من ذلك النبات المشهور بقندة العرب، وهي متصاعدة إلى

(1) وهو العالم ميري.

طبقة الجوّ السائر فيها السواح بقبتهم، ولم تخل تلك الروضة البهية من شجر جوز السودان والبوبات والموز وخلافها.

فقال العلَّامة: وما أحلى هذه الروضة الأنيقة!

قال يوسف: ها هي ذي الحيوانات؛ فعما قليل نشاهد الناس.

قال الصياد: كم هي جميلة تلك الفيلة! هل ترى من الممتنع صيدها؟

قال فرغوسن: وما الحيلة لنقف يا خليلي، ونحن منجذبون بهذا المهب السريع الشديد؛ دع عنك هذا المرام، وتمهَّل قليلًا، فسوف تجازى على صبرك واحتمالك.

وفي الحقيقة أن منظر تلك البهائم كان من شأنه أن يهيج المخيلة، وقد أحسَّ ديك بوثب قلبه، وتقلصت أصابعه وهي قابضة على السلاح.

وأما حيوانات ذلك الصقع فتضاهي زهارها بهاء ورونقًا، والثيران تتمرغ في حشيش غليظ، وتتوارى في خلالها لعلوِّها وكثافتها، والفيلة الرمادية اللون والسوداء والصفراء ذات القامة الباسقة تَمُرُّ مرور أم زوبعة في وسط الغابات والأحراش، وهي تحطم وتقرض وتجلب الخراب والدمار حيثما جازت، ومجاري المياه تخرُّ في انحدارها من الآكام المشجرة هابطة لنحو الجهة الشمال، وهناك خنازير الماء تغتسل وتضج في اغتسالها، وغيرها من البهائم ترى مضطجعة على شواطئ البحيرة.

وكان ذلك المكان عجيبًا غريبًا لما يؤوي من الحيوانات الكثيرة المتنوعة

الأجناس، والطيور غير المحصى عددها وذات الألوان المشكلة، وهي تحوم متلألئة فوق النباتات الباسقة والخضار الأنيقة.

فلما رأى العلَّامة مثل هذا الخصب وهذه النضارة الطبيعية علم أن هذه مملكة أداموفا.

ثم قال هانحن أولاء نسطو الآن على الاكتشافات الحديثة؛ فإني أنهج منهج السواح الذين سبقوني، وأسير في الطريق التي لم يطيقوا تكميلها، فهذا من حسن حظي، وإن شاء المولى سنلحق عن قريب اكتشاف القبطانين برتون وأسبيك باكتشافات العلَّامة برث؛ فهناك تركنا الإنكليز وأتينا إلى هنا لمصادفة الهمبرجي، وعما قليل نصل إلى آخر محطة وصل إليها هذا العالم الجسور.

قال ديك: يخال لي من المسافة؛ التي جزناها أنه يوجد بون عظيم بين الأماكن التي قصدها السواح المذكورون.

قال العلَّامة: تعال نحسب هذه المسافة؛ خذ الخارطة وانظر في أي طول هو رأس البحيرة «أوكاروه» حيث وقف السائح أسبيك.

قال ديك: إنه واقع على التقريب في الدرجة السابعة والثلاثين طولًا.

قال فرغوسن: وما هو مركز مدينة يولا التي سنصل إليها إن شاء الله في نهاية النهار، وقد بلغها برث الشجاع؟

قال ديك: مركزها في الدرجة الثانية عشرة طولًا.

قال فرغوسن: فإذًا الفرق هو خمس وعشرون درجة، وكل درجةٍ كناية

عن ستين ميلًا، فيكون إذًا الحاصل ألفًا وخمسمائة ميل.

قال يوسف: لعمري إن ذا فسحة جميلة لمن يودُّ التنزه ماشيًا.

قال العلَّامة: لا بد لنا من قطع مثل هذه المسافة فعلًا؛ فإن ليونكستون ومفات لا يزالان مقيمين في قلب إفريقية، ولا تبعد نياسا التي اكتشفوها كثيرًا عن بحيرة تنغانيكا المكتشفة من برتون، ولا يمضي هذا الجيل إلَّا وتُعْرَفُ جميع هذه الأماكن، ثم نظر العلَّامة إلى البوصلة وقال: ولكن أرى الريح تدفعنا كثيرًا إلى الجهة الغربية، وكنت أود لو دفعتنا إلى الشمال ولكن ما الحيلة.

وبعد أن سارت المنصورة مدة اثنتي عشرة ساعة وصلت إلى حدود بلاد النيكريسية؛ أي السودان، وسكان هذه البلاد الأولون من عرب الشول رعاة المواشي البادية، وفي الأفق تراءت رؤوس جبال أتلنتيكا الشامخة التي لم تدسها بعد قدم رجل إفرنجي، ويقال إن علو تلك الذرى عن سطح البحر يبلغ نحو سبعة آلاف وثمانيمائة قدم.

ثم تراءى لأعين السواح نهر حقيقي فعرف العلَّامة أنه نهر «بنوه» لوجود المناهل العظيمة المحيقة به، وهو من أصباب نهر النيجر الكبيرة، وقد دعاه الإفريقيون منبع المياه.

فقال العلَّامة لرفيقيه: سيأتي يوم يكون فيه هذا النهر سبيلًا طبيعيًا لمد سلك العلاقات إلى داخل النيكريسية، وتوافي سفينة إنكليزي تحت رئاسة أحد قباطيننا المشهورين في الحذق والمهارة، فتنزله وتصل به إلى مدينة

يولا، وعليه فإننا قائمون في بلاد غير مجهولة.

ثم شاهد السواح عبيدًا كثيرين يهتمون بحراسة الحقول وزراعة الحبوب، ولما كانت تمر فوقهم المنصورة كشهب الكواكب ترى الاندهاش مستوليًا عليهم، وبالغًا أقصاه وأغربه، ولما أَمْسَوا وَقَفَ السواح بعيدًا عن مدينة يولا بأربعين ألف ميل، وأمامهم كانت تقوم في الأفق البعيد قمتا جبل منديف الحادَّتان.

فأمر العلَّامة بإلقاء المراسي فتعلّقت برأس شجرة سامية العلو غير أن ريحًا شديدة الهبوب أخذت تلاطم القبة الهوائية، حتى إنها قد انثنت وتلوَّت، ووقعت مرارًا في خطر عظيم لأن تتمزَّق، فما نام العلَّامة ليلته كلها إلّا وهو في سهاد، وكاد أحيانًا يقطع حبال المراسي ليفر هاربًا من الزوبعة، ثم بعد ذلك هدأت الريح قليلًا، ولم يعد يخشى العلَّامة من تذبذب المنصورة.

وفي الغد كانت الريح أخف مهبًا، لكنها دفعت السواح عن مدينة يولا، وقد اشتاق العلَّامة إلى رؤيتها لأنها قد بنيت مجددًا من الفلَّان، ولكن إذا لم يكن له حيلة سوى الصبر سار مع هبوب الريح إلى الجهة الشمالية مائلًا قليلًا إلى الجهة الشرقية.

فسأل ديك أن يحط برهةً في تلك البلاد الكثيرة الصيد، ووافقه يوسف على ذلك؛ إذ قال إنهم في احتياج كلي إلى أكل اللحم الطري، أما العلَّامة فلم يَنْقَدْ إلى بغيتهما؛ لأنه يخشى تلك الأقوام البرابرة، ويرى القبة مرشوقةً بسهامهم.

وكان يمتد تحت المنصورة قرى وضياع كثيرة، ذات أكواخ طويلة ما بين المروج المنقشة بزهور بنفسجية.

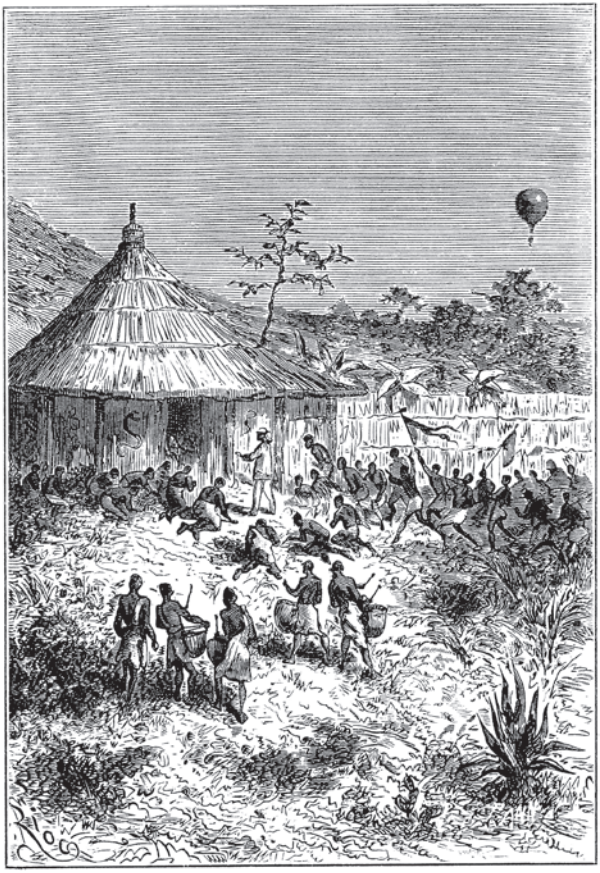
وما انفكت الريح تدفع القبة إلى جهة شمال الشرق رغمًا عمَّا بذله فرغوسن من المجهود لتغييرها، فأخذوا يتقدمون إلى جبل منديف المتواري بين السحب والغيوم، ورؤوس هذا الجبل الشامخة تفصل حوض النيجر من حوض بحيرة شاد.

ثم شاهدوا الجبل المعروف باسم «باجلة»، وفي جانبه اثنتا عشرة قرية متعلّقة به، تخالها أطفالًا اضطجعوا على حضن أمهم، وقد عظم هذا المنظر جمالًا لإشراف السواح عليه من العلو، وكانت الخنادق تتراءى لهم مغطاة بالزروع المتنوعة الألوان.

وعند الساعة الثالثة بعد الظهر قابلت المنصورة جبل منديف، وبما أنه لم يتمكن العلَّامة من الحيد عنه أخذ يهتم في مجاوزته؛ فرفع حرارة القصبة إلى مائة وثمانين درجة، وإذا بالقبة تعلو عن الأرض أكثر من ثَمانية آلاف قدم، وهذه كانت أعلى طبقة يصل إليها السواح في رحلتهم الجوية، فعندها اعتراهم البرد واضطروا إلى أن يلتحفوا بأغطيتهم خشية من المضرة، ولكن لم يستمروا برهةً هناك إلَّا أخذوا بالنزول إلى الأرض بواسطة تخفيف حرارة القصبة، وقد كادت تتمزَّق القبة لشدة تمددها وانتفاخها، واستطاع مع ذلك العلَّامة أن يحقق كون أصل ذلك الجبل جبلًا ناريًا أمست فوهاته المطفأة لججًا قعيرة جدًا.

وفي الساعة الخامسة لطت المنصورة من ريح الجنوب، فنزلت في

منحدر الجبل نزول الهوينا، ثم وقفت في بقعةٍ خالية من كل شجر بوسط غابٍ، وليس فيها ساكن أصلًا، ولما مست الأرض مكنها يوسف لئلا تفلت هاربة، وقفز ديك من المركبة وبارودته في يده، وعدا في ذاك الفضاء المنحني، ثم عاد سريعًا بغنيمة وافرة من البط وجنس من دجاج الغاب، فهيأها يوسف للطعام، فأكلوا وشربوا بلذة وانشراح، ورقدوا بسكون واطمئنان تامين.



الفصل الثامن والعشرون

في مدينة مصفية وسجود أحد المشايخ للقبة الهوائية والكلام عن السواح
دنهام وكلابرتون وأودني وفوجل وما كان من الحمام المشعلة نارًا
المرسلة من والي قرناق

ولما كان الغد، وهو الحادي عشر من شهر أيار، سارت المنصورة بمهب الريح، وكان السواح يثقون بها ثقة النوتية بالسفينة المتينة.

ولم تكن ثقتهم بها خالية من الدعم؛ إذ إنهم كانوا قد ساروا مسافةً عظيمةً، ونجوا من كل ما من شأنه أن يورطهم في لجج الأخطار والمهالك كالرمض والزوابع والمنازل والمطالع، ويمكن القول: إن العلَّامة كان يقيدها كيفما شاء بمجرَّد الإشارة، ومع أنه لم يكن عارفًا ما هي البلدة التي تنتهي فيها رحلته لم يخش بتةً سوء العاقبة، غير أنه كان مشددًا حرصه وحذره من الوقوع بأيدي الأقوام البرابرة المعتصبين الحالِّين في تلك البلاد، ويوعز إلى رفيقيه أن يترقبا دوما كل طارق.

ثم أخذت الريح تدفعهم قليلًا نحو الشمال، ولما صارت الساعة التاسعة بصروا عن بعدٍ بمدينة مصفية الكبيرة، المبنية على أكمةٍ مرتفعة بين جبلين

شامخين في العلو، وهي في مركز حصين جدًا؛ إذ لا يستطاع الدخول إليها إلَّا من طريق ضيقة وقعت بين غاب وغدير.

وفيما كانت المنصورة مارة فوق المدينة شاهد السواح شيخًا مصحوبًا بقوم خيالة، وهو متسربل بثياب ذات ألوان باهرة، وأمامه مبوقون وقوم سرعان ما يزيحون الأغصان لئلا تعيق مسيره في الطريق.

فنزل العلَّامة قليلًا ليتأمل هؤلاء الأقوام عن قرب، ولكن كلما دنت منهم القبة الهوائية لاحت على وجوههم أمارات الدهشة والهلع، ولم تمض برهة إلَّا أخذوا في العدو على قدر خفة خيلهم.

أما الشيخ فلبث وحده منتصبًا قائمًا ولم يتحرك من مكانه، ثم أخذ قرابينته وأذخرها، وجعل ينتظر متغطرسًا، فدنا، منه فرغوسن إلى نحو مائة وخمسين قدمًا وقرأه السلام بالعربيّة.

فعندما سمع الشيخ هذا السلام السماوي خرَّ ساجدًا على الحضيض، ولم يستطع العلَّامة أن يلهيه عن السجود.

فقال العلَّامة: إنه لمن المستحيل ألَّا يعتبرنا هؤلاء الأقوام بمنزلة خلائق فائقة الطبيعة؛ حيث إن الإفرنج الأولين الذين قدموا على هذه البلاد قد حسبوا من نسل فائق الطبيعة البشرية، وإذا ما حدث الشيخ الساجد لنا قومه وخلانه عن هذه الصدفة الغريبة فلن يقصر عن تعظيمها وزخرفتها، وتجود له القريحة العربيّة بتصوراتها المدهشة، وهكذا يأتي يوم تحكى فيه الحكايات الغريبة عنا على أساليب شتى.

قال الصياد: هذا مما لا يسر الخاطر؛ لأننا إذا رغبنا في تمدن هؤلاء الأقوام

فالأجدر بنا أن نعتبر عندهم أناسًا، وهذا من شأنه أن يجعلهم يخالون حسنًا ما هية قوة التمدن الأوربي.

قال فرغوسن: سلمت معك في هذه القضية، ولكن ما هي حيلتنا في ذلك؟ فإنك تتعب باطلًا إذا أردت أن تشرح لعلماء هذه البلاد عن آلات القباب الطيارة، فلا يدركون كلامك، ويصرون على زعمهم أن ما رأوه فائق الطبيعة.

فقال يوسف: سيدي قد أشرت إلى الإفرنج الأولين الذين قدموا على هذه البلاد؛ فهل تتكرَّم علينا بذكر أسمائهم.

قال فرغوسن: اعلم يا صديقي أننا سائرون الآن في الطريق التي سلكها الضابط دنهام وقد اقتبله سلطان مندارا في نفس مصفية، فكان باين مملكة البرنو ولحق يغزو بشيخ على قبيلة الفلاحين، وحضر هناك محاصرة المدينة، فلم تنفع بوارید الشيخ أصلًا، بل تبدد هو وجنوده بقسي الفلاحين، فانتهز هؤلاء فرصة النصر ليستلوا سيف الانتقام، وخرجوا يقتلون أعداءهم وينتهبونهم ويسلبون أموالهم، وقد جردوا الضابط دنهام من أثوابه، ولو لم يختف تحت بطن حصانه ويعدو به عدو خيل السباق ما رجع أصلًا إلى مدينة كوكا عاصمة البرنو.

قال يوسف: ومن يا ترى كان الضابط دنهام؟

قال فرغوسن: كان إنكليزيًا ذا شجاعة وبسالة، وقد جلب معه فرقةً وطاف إفريقية من سنة 1822 إلى سنة 1824 قاصدًا مملكة البرنو، وذلك بمعية القبطان كلابرتون والعلَّامة أودني، فرحلوا من طرابلس الغرب في شهر

آذار ووصلوا إلى مورزوق قاعدة فزَّان، وساروا في الطريق التي سلكها فيما بعد المعلم برث عندما قصد الرجوع إلى أوربا، ثم وصلوا إلى كوكا بالقرب من بحيرة شاد في 16 شباط سنة 1823، وقد اكتشف دنهام أشياء كثيرة في مملكتي البرنو ومندارا وعلى شطوط البحيرة الشمالية، وفي غضون ذلك؛ أي في اليوم الخامس عشر من شهر كانون الأول سنة 1823، تقدم القبطان كلابرتون والعلَّامة أودني إلى داخل السودان حتى بلغا صقاتو، وقضى أودني نحبه في مدينة مُرمُر وهو عيان من التعب والضناكة.

قال ديك: فقد أدَّت إذًا هذه البلاد إلى العلم خراجًا جزيلًا بالضحايا النفيسة التي ضحت فيها.

قال فرغوسن: نعم يا خليلي؛ فإن هذه البلاد بلاد سوء، والشؤم حالٌّ فيها؛ فها إننا سائرون الآن بخطٍ مستقيم إلى مملكة برغيمي التي قطعها فوجل سنة 1856 قصد الدخول في مملكة واداي، وهناك اختفى ولم يعرف له أثر، وقد أرسل ذاك الشاب البالغ من العمر ثلاثا وعشرين سنة فقط ليساعد العلَّامة برث في أشغاله، وقد تلاقيا معًا في الواحد من شهر كانون الأول سنة 1854، ثم طفق فوجل يستقرئ عن تلك البلاد وفي سنة 1856 أرسل كتبًا وذكر فيها رغبته في الدخول إلى مملكة واداي والبحث عنها؛ فلم تَدُسْها بعد قدم إفرنجية؛ فالظاهر أنه بلغ وارة عاصمة واداي، فمن الناس من قال عنه إنه أسر هناك، ومنهم من قال إنه قتل؛ إذ حاول الصعود إلى جبل مقدس غير أنه لا يسوغ أن يسلم حالًا في موت المسافرين؛ لأن هذا يصد عن طلبهم، فكثيرًا ما شاعت الأخبار الرسمية عن وفاة العلَّامة برث، فسببت له هذه الإشاعات حنقًا وغضبًا؛

فمن الممكن إذًا أن يكون فوجل قد أسر عند سلطان واداي طمعًا في فديته، فعزم البارون دي نيمنس على الذهاب إلى واداي ففاجأته المنية في القاهرة سنة 1855، وأما الآن فتوجهت جوقة سواح من ليبسيك، ومعهم العلَّامة دي هكلين، وقصدوا وجود أثر لفوجل، وعن قريب يتضح لنا ما كان نصيب ذاك الشاب الشجيع[1].

ثم توارت مصفية عن أبصارهم، وظهرت لهم بلاد مندارا الجزيلة الخصب والريعان ومنها غابات الأقاقيا والماش ذات الزهور الحمراء، ونباتات القطن والنيل، وهناك تجري مياه نهر شاري المزبدة، وهو لا يصب إلَّا في بحيرة شاد عن بعد ثمانين ميلًا من ذلك المكان.

فأخذ العلَّامة يدل رفيقيه على ذلك النهر في الخارطات الجغرافية المرسومة من المعلم برث.

وقال لهما: رأيتما يا خليليَّ أن أبحاث هذا العالم الحاذق هي في غاية الدقة والضبط؛ لأننا نسير بخط مستقيم إلى إقليم لغوم، وربما إلى قرناق عاصمته، وهناك كان نياح أحد الإنكليزيين المدعو تول، وهو بالغ من العمر نحو اثنتين وعشرين سنة فقط، وهذا كان قد لحق بالضابط دنهام في إفريقية منذ بضعة أسابيع، فما لبث أن صادف فيها المنية؛ فتعسًا وويلًا لهذه البلاد المشؤومة؛ فإنه بحق يقال عنها إنها مدفن الإفرنج.

فشاهد السواح بعض القوارب نازلة في مجرى نهر شاري، وهي تبلغ من الطول نحو خمسين قدمًا، وإذ كانت المنصورة عالية عن الأرض بنحو

(1) من بعد أن تمت رحلة العلَّامة فرغوسن وردت الرسائل من العبيدية وهي موجهة من منزنجر رئيس الجوقة الجديد، ومنها اتضح الخبر المشؤوم بمبارحة فوجل هذه الدنيا.

ألف قدم لم تجذب إليها انتباه السودان، أما الريح فبعد أن كانت شديدة المهب أخذت تنقص وتخف شيئًا فشيئًا.

فقال العلَّامة: ويا هل ترى يصيبنا الرواق كما في سابق الزمان؟

قال يوسف: لا بأس من ذلك؛ إذ لا عدنا نخشى بعونه تعالى لا قلة الماء ولا محول الصحراء.

قال العلَّامة: علينا أن نخشى أقوامًا برارة فاقوا قساوةً وفظاظةً!

قال يوسف: ها هي ذي شبه مدينة!

قال العلَّامة: إنما هي مدينة قرناق، وأرى أن النسيم يدفعنا إليها، فإذا شئنا رسمنا هيئتها وفصولها.

قال ديك: وهلَّا نقترب من الأرض.

قال العلَّامة: هذا أمر سهل؛ لأننا نحن فوق المدينة، دعني أبرم قليلًا لولب القصبة فلا نلبث أن نأخذ بالنزول.

فعقب مرور نصف ساعة وقفت المنصورة فوق المدينة بعلو مائتي قدم.

قال العلَّامة: إننا أقرب إلى المدينة من إنسان واقف على قبة كنيسة القديس بولس، ومتفرج منها على مدينة لندرة؛ يمكننا إذًا التطلع على خاطرنا.

قال ديك: إني أسمع صوت مطارق؛ فما عساها تكون؟!

فجعل يوسف يحدج ببصره ويشدد نظره، فرأى أن تلك الضجة صادرة

من الحياكين الكثيرين، الذين يطرقون نسيجهم الممدود على أرواط طويلة، وذلك في وسط الساحات.

فرأوا عاصمة لغوم كأنها على سطح منبسط، ويحق لها اسم مدينة لأن بيوتها متساوية الصفوف، وطرقها عريضة، وكان سوق العبيد قائمًا في ساحةٍ فسيحة وسط المدينة، وهناك مشترون كثيرون لأن الإماء المنداريات ترغب كثيرًا وتباع بقيمة وافية.

فعندما بصروا بالمنصورة أصابهم ما أصاب غيرهم قبلًا؛ إذ إنهم شرعوا أولًا بالضجيج، ثم أتبع ذلك الضجيج سكوت الدهشة العظيمة، وتُركت الأشغال ووقفت وزال صوت المطارق، أما السواح فما برحوا واقفين لا يتحركون وهم يتأملون أولئك الأقوام الكثيرين، ثم نزلوا أيضًا نحو ستين قدمًا.

فخرج حينئذٍ والي بلاد لغوم من مقره وهو حامل رايته الخضراء، ومعه أصحاب الموسيقى الذين كانوا يضربون في أبواق من قرون الجاموس ذات صوت أبح، ثم أحاق به قومه، وحاول العلَّامة أن يسمعهم صوته فلم يَقْوَ على ذلك.

وكان لذلك الشعب جبهة عالية، وشعر متجعد وأنف أقنى، وهم متصفون بالعجرفة ولا يخلون من الذكاء والفطنة، ولكنهم مضطربون لظهور المنصورة، ثم تحقق السواح أن جنود الوالي أخذوا في الاحتشاد والتأهب لمحاربة عدو لم يسبق له مثيل؛ إذ شاهدوا الخيالة يتسابقون في الخيل، ويعدون إلى أنحاء شتّى، فنشر يوسف الرايات المشكلة الألوان فلم يحظ بنتيجة البتة.

ثم مضت فترة وطلب الشيخ إلى قومه أن يصغوا له فخطب خطبة بالعربيّة الممزوجة بلغة البغيرمي، فلم يفهم العلَّامة كلمة واحدة، لكنه علم بلغة الوماء العمومية أن الوالي يدعوه إلى الذهاب دعاء صريحًا، فود العلَّامة الذهاب ولكن لم توافقه الريح، ولم يستطع الحراك من مكانه فاغتاظ الوالي من هذا الرسوخ، وأخذ زعماؤه ورجاله يعرُّون ويضجون ليحملوا الوحش الجوي على الانطلاق.

ففي الحقيقة كان هؤلاء الزعماء مما يوجب الاستغراب والاعتجاب؛ فإنهم متدثرون على جسدهم بخمسة أو ستة قمصان ملونة، وبطونهم بليغة كبرًا انتفاخًا، وبعضها ترى كأنها مصنعة ومحض حشوٍ، فقال العلَّامة لرفيقيه: إن هذه الهيئة واسطة عندهم لمراضاة السلطان والدخول في خاطره، ودوار البطن مما يدل عندهم على الطمع، فكان هؤلاء الناس الضخام يتحركون ويومئون بالأيدي ويصرخون ويضجون، وخصوصًا واحدًا منهم كان ضخمًا جدًا، فظن به أنه وزير أول في تلك الولاية؛ لأن الضخامة كما قيل لها اعتبار عظيم في تلك الديار.

وكان العبيد السود أيضًا يضجون مع أرباب الحكومة، ويتحركون كالسعادين، وبالجملة كنت ترى نحوًا من عشرة آلاف ذراعٍ مرتفعة ومتحركة باضطراب الجنون.

فلما رأوا أن حركاتهم لم تُجْدِ نفعًا، بل ذهبت هدرًا، وعدوهم راسخ لا يتأثر منها جعلوا يتمسكون بوسائط أفعل؛ فاصطف الجنود المتسلحون بالقوس والنشاب قاصدين رشق القبة بالسهام، إلَّا أن المنصورة أخذت حالًا بالارتفاع لئلَّا يصيبها ضرٌّ من القسي، فأخذ الوالي حينئذٍ قرابينه

ووجهها نحو القبة الهوائية، فلما رآه ديك مستعدًا لإطلاقها، وهو إذ ذاك يرصده رماه برصاصةٍ فكسر السلاح بين يديه.

فعند هذه الضربة غير المنتظرة اضطرب الكبار والصغار وتفرقوا طرائق، وولوا الأدبار هلعًا ووجلًا، ودخل كلٌّ كوخه فمضى النهار بأسره ولم يظهر أحد منهم البتة بل أصبحت المدينة خاوية خالية كالصحراء.

ثم جن الظلام فدخل الليل ولم تهب الريح مطلقًا، فاضطر العلَّامة إلى أن يلبث قائمًا بلا حركة فوق الأرض بعلو ثلاثمائة قدم، ولم ير نورًا يضيء ظلام الأكواخ والبيوت، بل كان السكوت المطلق مستوليًا على المدينة كما هو الحال في بادية مقفرة، فخمن العلَّامة من هذه النصتة فخاخًا يجب التحذر منه، فضاعف انتباهه وسهره.

وقد أصاب حق الإصابة في حدسه وسهره؛ لأنه ما انتصف الليل إلَّا ظهرت المدينة كأنها شعلة متأججة نارًا، وأخذت الخطوط النارية تتصلب كالشبكة، وكأن المدينة قد لبست حلة النار وتشعبت أشعتها في الآفاق.

فقال العلَّامة: هذا أمر غريب فيه العجب العجاب.

قال ديك: سامحني الله؛ فكأني أرى الحريق يتصاعد إلينا.

وفي الحقيقة كانت تلك الحلة الملتهبة والمتأججة نارًا ترتفع نحو المنصورة، والأصوات المضجة مرتفعة معها، والقرابينات تطلق في الجو، فتأهب يوسف لأن يلقي ثقلًا رغبة في الارتفاع وما مضت برهة إلَّا فهم فرغوسن واقعة الحال.

فإن هؤلاء القوام كانوا قد أرسلوا حمامًا بعد أن علقوا في أذنابها موادًا مشتعلة، فلما أحست بالنار أخذت تطير هربًا منها، وارتفعت في الجو وهي تخط تلك الشعاب النارية، فجعل ديك يطلق الرصاص على قدر مكنته، ولكنَّ أعداءه كثيرون لا يحصون عددًا، فكان الحمام قد بلغ القبة وأحاق بها فشوهدت جوانب المنصورة كأنها في شبكة ملتهبة من جراء سطوع النور عليها.

فما تماسك فرغوسن أن رمى قطعة معدنية ثقيلة وارتفع حالًا بسرعة فوق تلك الطيور المخطرة، وقد حامت الحمام تحت أقدامهم نحو ساعتين من الزمان، وهي طائرة إلى أنحاء مختلفة، ثم أخذت تحف وتنقص رويدًا رويدًا إلى أن توارت عن البصر بالكلية وانطفأت نارها.

فقال العلَّامة: الآن يمكننا الرقاد براحة.

قال يوسف: إن هذا الفكر مدهش ويدل على حذق عند هؤلاء البرابرة.

قال العلَّامة: إنهم كثيرًا ما يستعملون الحمام لإحراق القش المغطى به أكواخ القرى، وأما قبتنا فطارت وعلت عن حمامهم.

قال ديك: حقًا؛ ليس للقباب الطيارة أعداء يتمكنون من مضرة أصحابها.

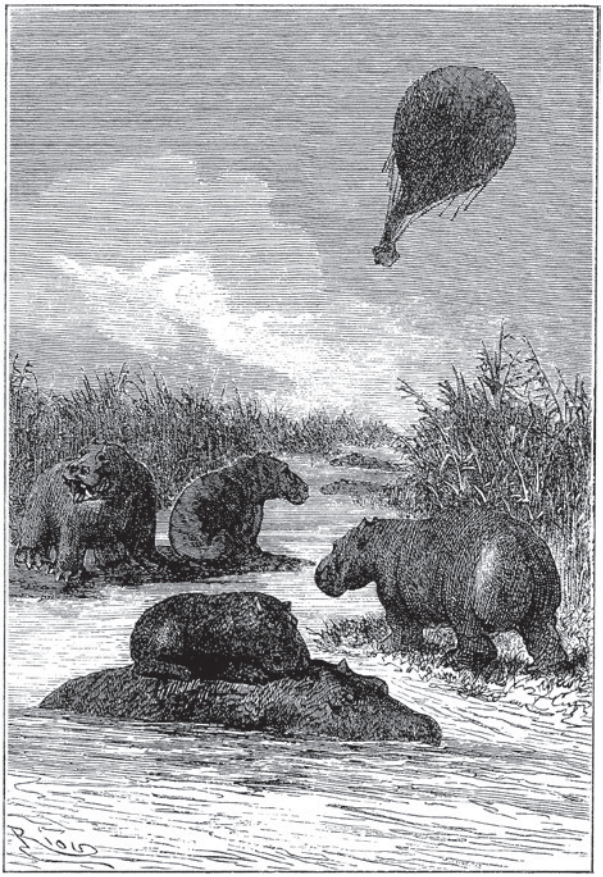
قال العلَّامة: بلى يا صديقي.

قال ديك: ومن عساهم يكونون؟!

قال العلَّامة: إنما هم أصحابها القليلو الفطنة، الذين يركبونها، ولهذا أحثكما يا خليليَّ على التيقظ والفطنة؛ فإن الفطنة لا بد منها في كل أمر.

الفصل التاسع والعشرون

في الارتحال في الليل والكلام عن نهر الشاري وبحيرة شاد ومائها وفرس النهر وإطلاق الرصاصة عليه عبثًا



ولما كانت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل ويوسف إذ ذاك قائم في حراسة ربعه، رأى المدينة آخذة في الابتعاد عنه، وسارت المنصورة في الجو واستيقظ حينئذٍ العلَّامة والصياد معًا.

فتطلع فرغوسن في البوصلة وعرف أن الريح تدفعه إلى شمال الجهة الشرقية فطاب منه الخاطر.

فقال:إن نجم سعدنا مقبل معنا وقد نجحنا في كل مسعًى، وسنكتشف اليوم بحيرة شاد نفسها.

فسأل ديك قائلًا: وهل هذه البحيرة فسيحة كثيرًا؟

قال فرغوسن: إنها عظيمة جدًا يا صديقي ديك، ولو قيست في طولها وعرضها الأكبرين لبلغت مائة وعشرين ميلًا.

قال ديك: إننا نغير المنظر بمسيرنا فوق بساط مائع.

قال فرغوسن: فضلا عن المناظر والمشاهد الكثيرة التي تراءت لأعيننا في رحلتنا هذه فليس لنا باعث للتشكي، وعلى الخصوص من حيث إننا تنزهنا عن المخاطر الجسيمة.

قال ديك: نعم يا سيدي صموئيل، ما خلا انمساكنا من الماء في قلب الصحراء؛ فلولاه ما عددنا واقعة واحدة مخطرة في رحلتنا كلها.

قال فرغوسن: إن منصورتنا، عافاها الله، حافظت على متانتها، ولم يطرأ عليها طارئ، فها نحن أولاء الآن في اليوم الثاني عشر من شهر أيار، وقد رحلنا في اليوم الثامن عشر من شهر نيسان، فنكون قد مشينا خمسة وعشرين يومًا، وإن شاء المولى سنصل بعد عشرة أيام.

قال ديك: وإلى أين الوصول؟

قال فرغوسن: إلى حيثما شاء ربك، ولكن هذا لا يهمنا كثيرًا.

قال الصياد: أصبت؛ فلندع العناية الربانية تبلغنا إلى حيث شاءت معافين صحيحين كما نحن الآن؛ لعمري لا يبين علينا أننا جزنا البلاد الأكثر وباء من العالم.

قال فرغوسن: ولكن كان في استطاعتنا أن نرتفع إلى العلو لننجو من وبائها، وهذا ما عملناه.

فصاح يوسف وقال: حي الله الأسفار الجوية؛ فها إننا سرنا في هذه الرحلة مدة خمسة وعشرين يومًا، ونحن في صحة تامة وراحة وانشراح،

ولم يخل من الأطعمة الطيبة، غير أننا حزنا راحةً زائدة الحد ولذا أحسُّ أن ساقيَّ آخذتا في التخدر لقلة الحركة؛ فحبذا لو مشيت مسافة ثلاثين ميلًا لأنتعش وأتقوَّى.

قال العلَّامة: مهلًا!... ستفعل ذلك في أزقة لندرة، ثم اعلما يا صديقيَّ أننا سافرنا ثلاثة كما سافر دنهام وكلابرتون وأوفرويك، وكما سافر أيضًا برث وريشردسون وفوجل، وأما نحن فلنا حظ وسعد أعظم؛ إذ لم يفترق منا أحد، ويهمني أن نبقى ثلاثتنا سوية؛ فلو، لا سمح الله بذلك، حدث مرة أن واحدًا منا يكون على الأرض واضطرت المنصورة إلى الارتفاع تحرصًا من خطرٍ فجائي غير منتظر، فمن يعلم إن كنا نتمكن من الاجتماع عليها، ولهذا أقول لديك بحرية تامة: إني لا أود كثيرًا أن ينطلق إلى الصيد خوفًا من مثل تلك الرزيئة.

قال ديك: ولكن أؤمل أن تسمح لي بذلك؛ لأنه ينفعنا لتجديد زاد اللحم، فضلًا عن أنك قبل أن نسافر قلت لي: إن البلاد الإفريقية بلاد صيدٍ، وفيها من كل ما يروق للخاطر، وها قد جزنا أكثر الطريق ولم أَصْطَدْ شيئًا ذا أهمية!

فقال العلَّامة: الظاهر يا صاح أنك نسيت ما فعلت، أو بالأحرى لا يدعنّك اتضاعك أن تفتكر بما أتيت من الأفعال المستحقة الذكر الجميل؛ أليست ذمتك مثقلة ببرقيل وفيل وأسدين، فضلًا عما كنت تصطاده للطعام في كل فرصةٍ، ولم يكن قليلًا؟!

قال ديك: وهل يحسب هذا للصياد الإفريقي الذي يرى حيوانات الخليقة كلها تمر أمامه مرور الطير والعصفور في بلادنا؟!... وهاك الآن سربة

من الزرافي!

قال يوسف: أتظن أن هذه زرافي؛ إني أراها صغيرة لا تزيد حجمًا عن قبضة الكف.

قال العلَّامة: ليس ذلك إلَّا لأننا نبعد عنها ألف ميل، وأمَّا إذا دنوت منها شاهدتها تعلوك ثلاث مرارٍ.

قال ديك: وما قولك عن هذه الغزلان وتلك النعائم التي تجري جري الرياح؟

قال يوسف: وكيف تقول إنها نعائم؛ فإني لا أميزها قطعًا عن الدجاج؛ إذ لا فرق بينهما أصلًا؟!

قال ديك: أَلَا يمكننا الاقتراب يا سيدي صموئيل؟!

قال العلَّامة: نعم يمكننا الاقتراب، ولكن لا نستطيع النزول إلى الأرض؛ فو الحالة هذه لا أرى لك نفعًا بإطلاق الرصاص على هذه الحيوانات؛ فلو أردت قتل سبع أو نمر أو ضبعة لكان ذلك محتملًا؛ فإنها من الحيوانات المضرة، وأما البرنيق والغزال فليس لك نفع من ذبحهما؛ إنما يغريك على ذلك حبك للصيد بل فرط تولعك فيه، ومع هذا فها إننا ندنو من الأرض حتى لا نعلوها إلَّا بعلو مائة قدم، فإذا صادفت حيوانًا كاسرًا رميته برصاصةٍ في قلبه، فيقر منك الخاطر.

ثم أخذت المنصورة في النزول رويدًا رويدًا ووقفت في العلو المومأ إليه، لئلَّا تدهمها داهية؛ لأن أهل تلك البلاد كثيرون ومتوحشون، ويخشى على

المسافرين من خطرٍ فجائي.

وما انفكَّ السواح طائرين فوق مجرى نهر شاري، وسواحل هذا النهر مغطاة بفيء الأشجار المتفننة الأجناس، ونباتات كثيرة ذات ألوانٍ متنوعة. والتماسيح فمنها ما تختبط على الرمل، ومنها ما تغطس في المياه بنزقٍ وتتنزه فيها، وتتناهز بعد قليل شط الجزائر الخضراء القاطعة جريان النهر.

وهكذا مرَّ السواح بمقاطعة مفاتاي بين الخضار والنضارة الطبيعية، وعند الساعة التاسعة صباحًا وصلوا إلى شط بحيرة شاد الجنوبي، وهذه البحيرة تشبه بحر قاف لانحصارها في اليابسة وانفصالها عن البحر المحيط، ولطالما أدخل ذكرها في سلك الخرافات والحكايات التي لا أصل لها، ولم يكتشف عليها سوى دنهام وبرث في رحلاتها الإفريقية.

فحاول العلَّامة أن يأخذ رسمها الحالي المختلف كثيرًا عن رسمها المأخوذ سنة 1847، وفي الحقيقة لا يمكن تسطير هيئة تلك البحيرة؛ فإنها محتاطة ببطاح موحلة يشق عبرها، وكاد برث يهلك فيها عندما أراد أن يقطع إحداها، ولا تمضي سنة على سنة حتى تصبح تلك البطاح المغطاة بالقصب ونبات البردي الطويل قسمًا من البحيرة نفسها، وكثيرًا ما تعم المياه بعضًا من البلاد المبنية على ساحل البحيرة، كما جرى في مدينة نغرنو سنة 1856، فشاهدوا البرانق أي خنازير الماء تغطس في المكان الذي قامت فيه قبلًا مساكن مملكة البرنو.

وكانت الشمس ساكبة أشعتها المنيرة على تلك المياه الصافية الهادية أما في الجهة الشمالية فيرى العنصران مختلطين في أفق واحدٍ.

فرغب فرغوسن في أن يحقق طبيعة الماء الذي طالما قيل عنه إنه مالح، وحيث ليس خطر في الدنو من سطحه رفرفت المنصورة فوقه كالطير، وعلت عن البحيرة نحو خمس أقدام فقط.

ثم تناول يوسف آنية وأدلى بها إلى البحيرة، فملأ نصفها ماءً، ثم ذاقه العلَّامة فرأى أنه لا يصلح كثيرًا للشرب، وأن له طعما يشبه طعمة النطرون.

فبينما كان فرغوسن يسطر نتيجة اختباراته وامتحاناته دوَّى في الآفاق طلقة الرصاص، فلم يطق ديك اصطبارًا؛ فقد شاهد برنيقًا جسيمًا، وكان البرنيق في رواق تام، فلما أحس بِدَوِيِّ الرصاص ضرب في الماء وكأنه لم يضطرب من رصاصة الصياد.

قال يوسف: كان الأوفق لو أمسكناه بخطافٍ!

قال ديك: وما هو خطافنا؟!

قال يوسف: إنما هو إحدى مراسينا؛ فإنها الموفقة لهذا الحيوان، وهي كثيرة.

قال ديك: في الحقيقة هذا رأي...

قال فرغوسن: هذا رأي أرجو ألَّا تنفذوه لأننا لو أمسكنا هذا الحيوان بمراساتنا لجرنا حيث لا يروق خاطرنا.

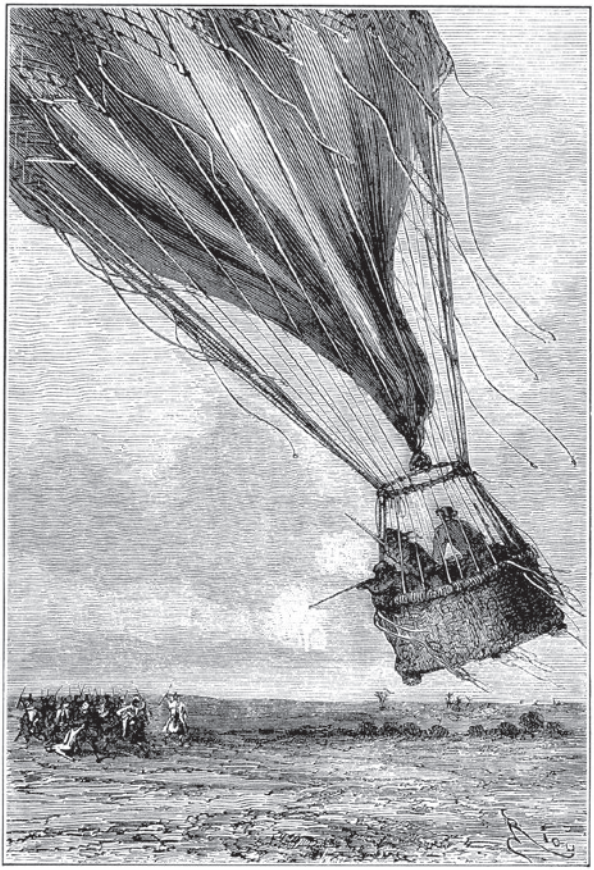
قال يوسف: ما لنا وله؛ فإننا علمنا الآن كنه ماء البحيرة وكفى، ولكن هل يؤكل هذا السمك يا سيدي؟

قال العلَّامة: إن سمكك هو حيوان من جنس الفيلة، وقد قيل إن لحمه لذيذ، ويتاجر به كثيرًا سكان سواحل هذه البحيرة.

قال يوسف: آه لو أصاب صاحبي ديك في ضربته!

قال العلَّامة: لا يمكن جرح هذا الحيوان إلَّا في بطنه وبين أفخاذه؛ فربما لم تجرحه قط رصاصة الصياد، ولكن إذا وافقني المكان فإني أحطُّ على جهة البحيرة الشمالية، فهناك منزل الوحوش، وعلى ديك أن يفعل ما يشاء خاطره.

قال يوسف: أودُّ أن يصطاد ديك بعضًا من هذه البرانق لأذوق لحمها؛ فإنه ليس من الصواب أن يدخل الإنسان قلب إفريقية ويعيش فيها مقتاتًا بلحم دجاج الغاب وأحجال البرية كما هو الحال في بلاد الإنكليز.



الفصل الثلاثون

في عاصمة البرنو وظهور البواشق ومنازعتها المنصورة وما أظهر
يوسف من الغيرة الخالصة عند انخراق غطاء القبة

وعند وصول المنصورة إلى بحيرة شاد صادفت مهبًا مائلًا إلى الجهة الغربية، وقد تجلببت السماء بغيمٍ خفف حرارة النهار، ولم تَخْلُ الريح من الهبوب فوق تلك المسافة المائية الفسيحة، وعند الساعة الواحدة قطعت المنصورة قسمًا من البحيرة بخطٍ منحرف، وتقدمت إلى فوق الأرض بمسافة سبعة أو ثمانية أميال.

فساء العلَّامة اتجاهه نحو تلك الناحية، ولكن لما شاهد مدينة كوكا الشهيرة، وهي عاصمة مملكة البرنو، قلب كدره إلى سرور، فأخذ ينظر إلى تلك المدينة المحاطة بجدرانٍ من تراب الفخار، وبيوتها المبنية على شكل زهر اللعب، وجوامعها القليلة الإتقان، وأشجار النخل والصمغ المكللة بمظلة من الأوراق البالغة عرضًا أكثر من مائة قدم والنابتة بين البيوت وفي الساحات العمومية، فقال يوسف: إن تلك المظال مناسبة جدًا لتلك المحال؛ نظرًا لاشتداد حرارة الشمس فيها، ولخص من ذلك نتائج تشير

إلى حسن العناية الإلهية.

وكوكا مؤلفة من مدينتين متمايزتين، ويشقها طريق واسعة جدًا، يبلغ عرضها نحو خمسمائة وثمانين مترًا، وتعرف عندهم بالدندال، وكانت وقتئذٍ غاصة بالخيالة والمشاة.

فمن جهةٍ، ترى المدينة غنية ذات دور مرتفعة، ومن جهة أخرى ترى الفقر حالًا فيها، وبيوتها لا تمتاز عن الأكواخ الحقيرة، وسكانها فقراء جدًا؛ كوكا ليست بمدينة تجارية ولا صناعية.

وقد شبهها ديك بمدينة أدمبرج؛ إذ امتدت في سهلة واسعة، منقسمة إلى مدينتين متفرقتين بطريق بينهما.

ولما كانت مهبات الرياح في تلك الناحية متقلبة جدًا هبت ريح فجائية دفعت المنصورة إلى ما فوق بحيرة شاد بعد أن سارت أربعين ميلًا؛ فبالكاد تمكن السواح من مشاهدة تلك المناظر.

فتراءى لهم حينئذٍ مشهد جديد، وهو جزائر البحيرة الكثيرة التي يسكنها البيديوماه، وهم قراصنة مشهورون يخشى منهم في تلك النواحي كما يخاف من التوارج في الصحراء.

فتأهب هؤلاء القراصنة لاستقبال المنصورة بالقِسيِّ والحجارة، أما المنصورة فارتفعت عن تلك الجزائر وحامت فوقها.

ففي تلك الساعة أرشق يوسف نظره إلى جهة الأفق ثم قال لِدِيك: سيدي ديك أنت الذي تهجس بالصيد ليلًا ونهارًا، وها هو ذا ما يعجب خاطرك

ويقضي وطرك!

قال ديك: وما هو يا يوسف؟

قال يوسف: أظن أن سيدي لا يكون هذه الدفعة من المخالفين لك في ضرب الرصاص.

قال ديك: احك إذًا، وما هو؟!

قال يوسف: أترى في تلك الناحية البعيدة فرقة الطيور الجسيمة المتجهة نحونا؟

فمسك العلَّامة منظرته، وقال: ما عساها تكون هذه الطيور؟!

قال ديك: بصرتها بصرتها! فإنها تبلغ أقل ما يكون الاثني عشر طائرًا.

قال يوسف: أظنها بالغةً أربعة عشر.

قال ديك: أسأل المولى أن تكون هذه الطيور من المؤذيات؛ لئلا يجد فرغوسن حجةً عليَّ، ويمنعني من ضربها بالرصاص!

قال فرغوسن: ليس لي إذ ذاك كلام أقوله لك، إن ما أتمنى أن هذه الطيور تبتعد عنا بالكلية.

قال يوسف: وهل تخاف منها؟

قال العلَّامة: إنها بواشق من الجنس الكبير، وإذا وثبت علينا...

قال يوسف: فإننا ندافع عن أنفسنا؛ لأن الرصاص والبارود عندنا كثير

جدًا، ولا أظن تلك البواشق مخيفة جدًا.

قال العلَّامة: ومن يعلم بذلك؟

فما مضت عشر دقائق إلَّا اقتربت الفرقة من المنصورة عن بعد مسافة طلقة رصاص، لكنها كانت تضج وتعر بصوتٍ أبح، ولا زالت تتقدم نحو المنصورة كأنها مغتاظة منها، ولم يعترها أدنى وجل ولا هلع.

قال يوسف: ما هذا الصراخ والضجيج؟... أرى أنه يسوؤها تسلطنا على أملاكها وطيراننا نظيرها.

قال ديك: في الحقيقة إن هيئتها مرعبة جدًا، وأظن أنها كانت ترمي الهول لو تسلحت بالقرابينة التي اخترعها بوردي مور.

قال العلَّامة: كن على يقين أنها ليست باحتياجٍ إلى تلك القرابينة!

فأخذت البواشق تطير وترسم في طيرانها دوائر متسعة جدًا، ثم حامت بالقرب من المنصورة، وكانت تخط السماء بسرعة طيرانها، وتندفع اندفاع قلل المدافع، وترجع إلى الوراء رجوعًا بغتيًا.

فشمل قلب فرغوسن القلق والاضطراب من هذه الطيور، ولذا عزم على الارتفاع في الجو هربًا من جوارهم المملوء خطرًا.

أما البواشق فلم يطب لخاطرها أن تترك القبة الهوائية، بل اتبعت أثرها إلى الأعالي.

فأذخر الصياد سلاحه وقال: أرى أنها تود مناظرتنا.

وفي الحقيقة كانت تقترب من السواح؛ فمنها ما دنا نحو خمسين قدمًا، وكأنها تستخف بأسلحة الصياد.

فقال ديك: إني أرغب كثيرًا في أن أضربها بالرصاص.

قال العلَّامة: كلا يا ديك؛ لا تورثنَّ نار غضبها وهيجانها بلا سببٍ!... فإننا نحثها بالرصاص على مناظرتنا والوثوب علينا.

قال ديك: ولكنني لا أخطئ في ضربي الرصاص.

قال العلَّامة: أتظن ذلك يا ديك؟... فإنك في خطأ مبين!

قال ديك: عندنا لكلٍ منها أكثر من رصاصةٍ.

قال العلَّامة: وإذا، لا سمح الله، وثبت على جهة القبة العليا فكيف يبلغ إليها رصاصك؛ فاحْسِبْ أنك أمام فرقة من الأسود في البادية، أو بمقابلة كلاب بحرية في قلب المحيط؛ فإن مثل ذاك الخطر يضاهي خطرنا في الجو.

قال ديك: أتتكلم بجدٍ؟!

قال العلَّامة: نعم يا ديك، وبجدٍ جاد.

قال ديك: والحالة هذه؛ فلننتظرَنَّ برهةً.

قال العلَّامة: انتظر برهة، وكن على أُهْبَةٍ إذا وثبت علينا، ولكن إياك أن تطلق رصاصة قبل أن أبلغك أمري.

ثم احتشدت الطيور بالقرب من المنصورة، وكانت إذ ذاك مسلوخة الحنجرة من شدة صراخها، وعرفها الغضروفي مرتفع بتعجرف، وعليه علوات ذات لون بنفسجي، ويبلغ طول جسمها أكثر من ثلاث أقدام وأجنحتها متلألئة من أسفل بأشعة الشمس المضيئة، ولها مشابهة عظيمة مع الكلاب البحرية.

فلما شاهدها العلَّامة تلحقه إلى الأعالي قال: إني أراها تتبعنا، ومهما ارتفعنا إلى شُرَفٍ فإنها تعلونا كثيرًا.

قال ديك: فما الحيلة إذًا وما العمل؟!

فلبث العلَّامة صامتًا وما تفوه بلفظةٍ.

فأردف الصياد كلامه وقال: اصغِ لي سمعًا يا سيدي صموئيل؛ فإن هذه الطيور تبلغ الأربعة عشر، ونحن عندنا سبع عشرة طلقة رصاص، فإذا ضربناها بها هلَّا تظن أننا نذيقها كأس المنون، ولك أن تعتمد عليَّ بجانب منها.

قال العلَّامة: لا ريب عندي في حذقك ومهارتك، وأؤكد لك أن الطيور التي تقع هدفًا لرصاصك تذهب فريسة الحمام، ولكن أقول لك تكرارًا إنها إذا وثبت على دائرة القبة العلياء فكيف يصيبها رصاصك وسلاحك، وللحال تبعج هذا الغطاء الذي يحملنا، فنهوي في لجة عميقة، لجة الهلاك؛ إذ إننا بعيدون عن الأرض مسافة ثلاثة آلاف قدمٍ.

وفي تلك الفترة دنا أحد هؤلاء البواشق الأكثر توحشًا، ووثب على المنصورة ومخالبه إذ ذاك مفتوحة ومنقاره، متأهبًا لأن يبعج القماش الحريري.

فقال العلَّامة: النارَ النارَ يا ديك!

فما فاه بهذا الكلام إلا أصيب الباشق برصاصة الصياد، وسقط وهو يدور في الجو.

وقد كان الصياد أخذ البارودة ذات الطلقتين، ومسك يوسف البارودة الأخرى.

فلما دوى صوت الرصاص شمل قلب الطيور الرعدة والهلع، وتنحت قليلًا ثم عادت بعد برهةٍ وأمارات الغضب لائحة على أطوارها، فرمى ديك في الحال الطير القريب برصاصة أصابت عنقه، وضرب يوسف طيرًا ثانيًا فكسر له جناحيه، ثم قال: لم يبق منها سوى أحد عشر طائرًا.

ففي الساعة والحال غيرت الطيور فَنَّها في مهاجمة السواح، وارتفعت جميعها باتفاقٍ واحدٍ إلى ما فوق المنصورة، فنظر ديك إلى فرغوسن ورأى وجهه قد علاه الاصفرار، رغمًا عن حماسته وجراءته وقلة اكتراثه بطروق الحدثان، واستولى على ثلاثتهم سكوت عميق مشوب بالاضطراب والهلع، ثم سمعوا صوت تمزيق أشبه بتمزيق القماش الحريري، وفي الساعة هبطت مركبة السواح، وكادت تفلت من تحت أقدامهم وتطرحهم ما بين السماء والأرض.

فنظر فرغوسن إلى البارومتر، ورآه يرتفع ارتفاعًا هائلًا، فصاح صارخًا: ألقوا الثقل حالًا ألقوه.

ففي رمشة عين توارت الحجارة المعدنية المتبقية في المركبة.

قال العلَّامة لازلنا نسقط ونهوي .... أفرغا صناديق الماء أيضًا.... ألَا تسمع يا يوسف؟!... ها!... إننا واقعون في البحيرة.

فأذعن يوسف لأمر سيده، ثم مال العلَّامة برأسه ورأى البحيرة كأنها آتية إليه وترتفع إلى العلو، وشاهد الأشياء قد تعظمت في عينيه، ووصلت القبة إلى مسافة مائتي قدم فوق سطح البحيرة.

فصاح العلَّامة قائلًا: ألقيا الزاد ولا تتركا منه شيئًا!

فرمى الرفيقان الزاد مع صندوقه.

فخفت سرعة السقوط، ولكن ما زال سقوطهم مستمرًا، وهم فوق البحيرة.

فصاح العلَّامة صيحة أخيرة: ما بالكما لا ترميان ؟!.. ارميا.. ارميا!

فقال ديك: ما بقي عندنا شيء.

فقال يوسف بعجلة: بلى.

قال هذا، ورسم على ذاته إشارة الصليب وغاب متواريًا عن المركبة الجوية، فصاح العلَّامة مرتاعًا: يوسف!... يوسف!

فلم يسمع له يوسف، ولما خف ثقل المركبة انكفَّت عن الهبوط، وارتفعت إلى الأعالي نحو ألف قدم، وتعبأت الريح بغطاء القبة المخزوقة فدفعتها إلى جهات البحيرة الشمالية.

فقال الصياد أَيِسًا: وا أسفاه عليه؛ فإنه وقع في لجة الهلاك وعدمناه!

قال العلَّامة: أما هلاكه فكان لنجاتنا يا ديك.

ثم أذرت عيون هذين الباسلين دمعة سخينة لفراق خليلهما، وأشرفا على الأرض ليجدا له أثرا فما وجدا لأنهما ابتعدا كثيرًا.

فقال ديك: ما حيلتنا الآن؟ وماذا ترى نستطيع أن نصنعه؟

قال العلَّامة: مرادي أن أخط في الأرض في أول فرصة تَمَكُّنِي من ذلك.

وبعد أن سارت المنصورة مسافة ستين ميلًا نزلت في موضع قفر في شمالي البحيرة، وعلقت المراسي في شجرة قليلة الارتفاع، ثم حكمها الصياد تحكيمًا.

فدخل الليل وحاول الرفيقان الرقاد فلم يقدرا على ذلك.



الفصل الحادي والثلاثون

في ظنون السواح وإصلاح موازنة القبة الهوائية وحساب العلَّامة وصيد الصياد والاستقراء في بحيرة شاد

ولما كان غد اليوم الثالث عشر من شهر أيار عرف السواح الجهة التي حلَّا فيها؛ فكانت شبيهة بجزيرة قائمة في وسط بطحة عظيمة، وحول هذه اليابسة قصب كبير كأشجار أوربا يمتد على مدى النظر.

وكان مركز المنصورة أمينًا لا يخشى عليها من خطرٍ؛ لأن البطحة صعبة الممر، وما لزمهم أن ينتبهوا إلّا لجهة البحيرة؛ فإن ألما كان آخذًا في الانبساط، خصوصًا في الجهة الشرقية، ولا يرى أمامه أرض ولا جزيرة البتة.

ولم يكن الرفيقان قد تجاسرا بعد على المحادثة عن خليلهم يوسف البائس، فافتتح الصياد الحديث عنه، وأخذ يبث تخميناته لرفيقه.

فقال: عل ظني أن يوسف لم يذق كأس الحمام؛ فإنه شهم شجاع نبيه، وعارف بفن السباحة، بل قليل المثال به، ولما عبر خليج «ادمبرج» لم

يظهر عليه أدنى ارتباك ولا شيء من الاضطراب، ولابد أن نعود لنراه، ولكن لا علم لي؛ وكيف ومتى يكون ذلك، أمَّا نحن فعلينا أن نبذل الجد والجهد، ولا نهمل واسطة لنمكنه من الاجتماع بنا.

فقال العلَّامة بصوتٍ شجن: أجاب الله سؤالك يا ديك؛ فإننا نفعل ما في وسعنا لنجده، فلنهتدِ أولًا على مركزنا، ولكن قبل كل شيء يجب أن نقلع عن القبة هذا الغطاء الخارجي الذي ليس له نفع؛ فإن وزنه يبلغ مائة وثمانية أرطال، فهذا لعمري ثقل جسيم نلقيه عنا.

فبدأ العلَّامة وديك بالعمل، وفي أوَّل الأمر تكبدا صعوبة كلية؛ لأنه لزمهما أن يقلعا القماش الحريري الصلب قطعة فقطعة، وأن يجزئاه شققًا صغيرة ليخرجاه من بين خيطان الشبكة التي عليه، وقد نظرا إلى خرق الباشق في الغطاء فوجداه كبيرًا جدًا.

وقد استمرا في العمل نحو أربع ساعات، ولكن لما تجردت القبة الداخلية من هذا الغطاء العظيم بانت غير ممسوسة، وكانت وقتئذٍ المنصورة قد خفت من خمس ثقلها، فتعجب ديك كل العجب لهذا الفرق الباهظ.

فسأل رفيقه العلَّامة قائلًا: هل يمكن لهذه القبة الصغيرة أن ترفعنا إلى الجو؟!

قال العلَّامة: كن على طمأنينة وراحة بال من هذا القبيل؛ لأني أصلح الموازنة وإذا عاودنا يوسف أخذناه معنا ورجعنا إلى المسير في طريقنا حسب العادة.

قال ديك: أظن يا سيدي صموئيل أننا لم نكن بعيدين عن الجزيرة وقت سقوطنا.

قال العلَّامة: نعم، وأنا أذكر ذلك، وأظن أن هذه الجزيرة كسائر جزائر بحيرة شاد يسكنها نسل قرصان وقتلة، ولا بدَّ أنهم دروا بنكبتنا، وإذا وقع يوسف بين أيديهم فماذا عسى يحل فيه إن لم يخالجهم اعتقاد باطل يصدهم عن قتله.

قال ديك: أقول لك إنه ماهر في جميع الحرف، وأنا واثق جدًا بفطنته ولبابته.

قال العلَّامة: وأنا أيضًا واثق بهما، وأما الآن يا ديك فاذهب واصطد لنا ما يكفي زادنا؛ لأنه قد فرغ من عندنا كل شيء، ولكن إياك أن تبعد كثيرًا!

قال ديك: على رأسي؛ فلا أطيل عليك الغيبة.

فأخذ ديك البارودة ذات الطلقتين، وتقدم بين الحشيش المرتفع النابت في غابةٍ ليست ببعيدة، ولما سمع العلَّامة بعد برهة تكرار دوي الرصاص تيقن أن صيده لا يخلو من ثمرة جيدة.

وفي غضون ذلك أخذ العلَّامة ينظر إلى ما تبقى في المركبة، وعزم على إصلاح موازنة القبة الصغيرة فرأى فيها نحو خمسة أرطال من اللحم المملح، وقليلًا من الشاي والبن، ونحو خمسة ليترات من العرق وصندوق ماء فراغٍ.

ولم يكن خافيًا على العلَّامة أن خسارة الإدروجين الذي تَسَرَّبَ من القبة

الكبرى سبب لها نقصًا في قوتها الرافعة نحو تسعمائة ليبرة إنكليزية. فاتخذ العلَّامة هذا الفرق أُسًّا له ليصلح الموازنة؛ فإن وسع المنصورة الصغيرة سبعة وسبعون ألف قدم مكعبة، وهي تحوي ثلاثة وثلاثين ألفًا وأربعمائة وثمانين قدم غازٍ مكعبة، وأما آلة إمداد الغاز فما زالت غير ممسوسة وصحيحة البنيان، وهكذا الكرة والأنبوب الذي على هيئة البرغي؛ فإنه لم يصبهما ضرر البتة.

فبلغت إذًا قوة القبة الرافعة نحو ثلاثة آلاف ليبرة إنكليزية، فإذا جمع ثقل السواح وزاد الماء والمركبة مع ضروریاتها، وأضيف إلى ذلك نحو مائتين وخمسة وعشرين لترا من الماء، ومائة ليبرة إنكليزية من اللحم الرخص فيكون مجموع ذلك ألفين وثمانيمائة ليبرة؛ فو الحالة هذه يمكنه أن يأخذ معه ثقلًا يبلغ وزنه مائة وسبعين ليبرة، فيستعمله عند الحاجة، وهكذا كانت القبة في موازنة تامة مع الهواء المحيط.

فتمم العلَّامة بالفعل هذا النظام، وأقام مقام وزن يوسف ثقلًا زائدًا من الرمل، وقد لبث منشغلًا إلى أن ولّى النهار مُدْبِرًا، فعاد ديك إلى رفيقه وقد صاد صيدًا وافرًا من الإِوَزِّ والبط البري ودجاج الغاب وغير ذلك، فهيأها جميعها وأحماها في النار بإدخال قضيبٍ رفيع في كل قطعة منها، وتعليقها فوق حطب أخضر مضرم بالنار، وبعد أن تدخنت بدرجةٍ أعجبت خاطر ديك رفعها ووضعها في المركبة.

وكان الصياد متأهبًا لأن يتمم المؤنة في الغد.

ولما جن الليل على السائحين تعشيا لحمًا مملحًا وكعكًا وشايًا، وبعد أن أكلا جيدًا من قبل التعب السابق استولى عليهما النعاس فناما، وكان كل

منهما سهرانَ بالحراسة في دوره؛ فكنت تراهما كأنهما يسألَان الظلام متفحصين عن رفيقهما يوسف، وكان يخال لهما أحيانًا أنهما يسمعان صوته، ولكن واحسرتاه على هذا الصوت الذي تمنيا سماعه؛ فإنه لم يطرق آذانهما حقيقة.

ولما سطعت أشعة الشمس المنيرة أيقظ العلَّامة رفيقه ديك وقال له: لقد أطلت الفكرى في ما ينبغي علينا فعله لنجاة رفيقنا.

قال ديك: قل يا سيدي؛ فإني قابل برأيك قبل أن أعلمه.

قال العلَّامة: من الضرورة أن نطلع يوسف على أثرٍ من أحوالنا.

قال ديك: لابدَّ من ذلك؛ لأنه إذا تصور أننا تركناه استولى عليه اليأس والقنوط.

قال العلَّامة: لا تظن مثل ذلك الظن؛ فإن يوسف يعرفنا حق المعرفة، ومن المحال أن يطرقه فكر كهذا؛ غير أنه ينبغي أن يعرف مكاننا ومقرنا.

قال ديك: وكيف العمل؟!

قال العلَّامة: إننا مزمعون أن نجلس في المركبة ونرتفع إلى العلا.

قال ديك: وعسى أن الريح تدفعنا إلى ما أبعد؟ فما حيلتنا حينئذٍ؟!

قال العلَّامة: إن الريح لا تدفعنا إلى حيث لا نشاء؛ تأمل مهبها الحالي؛ فإنها تدفعنا إلى فوق البحيرة، وهذا ما نرغبه الآن ويوافقنا، وسنبذل وسعنا في أن نستمر فوق هذا البساط المائي طول النهار؛ فلا شكَّ في أن

يوسف ينظر إلينا؛ حيث إن عينيه متجهتان دائمًا إلى العلو، ولربما يجد أيضًا وسيلة ليدلنا على مقره.

قال ديك: إذا كان مقيمًا وحده فإنه يدلنا لا محالة.

قال العلَّامة: ولنفرض أنه أُخِذَ أسيرًا فمن عادة هؤلاء الأقوام أن يحبسوا المأسورين في الأماكن الجهارية وعليه فإنه يشاهدنا ويفهم غاية تفتيشنا.

قال ديك: ولكن فلننظر إلى سائر الأحوال ولنفرض أننا ما وجدنا له أثرًا، ولا وجد هو منا دليلًا؛ فترى ماذا نصنع؟!

قال العلَّامة: إننا نبذل جهدنا في أن نصل إلى جهة البحيرة الشمالية، ونلبث منظورين على قدر استطاعتنا، وهناك ننتظر ونستقرئ السواحل والشواطئ؛ فلا بدَّ أن يوسف يجدُّ في الطلوع إلى إحداها، ولا نترك تلك المحلات إلَّا من بعد جهدٍ كلي نبذله حبًا فيه.

قال الصياد: هيا بنا إذًا إلى الرحيل!

فسطر العلَّامة مركز اليابسة التي أزمع أن يرحل منها، فكانت بموجب رسومه في شمالي بحيرة شاد؛ بين مدينة لاري وقرية أنجميني اللتين زارهما القائد دنهام، وفي خلال ذلك أكمل الصياد مصيدته، ولم يصادف في طريقه شيئًا من الوحوش الضارية التي تكثر في تلك البطاح.

ولما كانت الساعة السابعة صباحًا نشلت المرساة من الشجرة بتعبٍ جزيل، مع أن يوسف كان يرفعها دائمًا بلا إعياء، ثم انتشر الغاز وارتفعت المنصورة الجديدة إلى علو مائتي قدم عن الأرض؛ ففي أولَّ

الأمر اضطربت قليلًا ودارت على ذاتها، لكنها دفعت من ثَمّ بمهب شديد، وتقدمت إلى فوق البحيرة وهي تسير مسافة عشرين ميلًا في الساعة.

فما برح العلَّامة واقفًا فوق البحيرة بعلو مائتين إلى خمسمائة قدم، وديك يفرغ أحيانًا قِرابينه، وكانا يأخذان بالوطوء فوق الجزائر ويقتربان كثيرًا من الأرض، بل يخاطران بنفسيهما ويستقرئان بأعينهما في الآجام والأدغال وفي كل طَوِيَّةٍ أو صخرةٍ كان يمكن أن يختبئ بها رفيقهما ونزلا مرارًا إلى قرب القوارب الموجودة في البحيرة، فعندما كان يبصر الصيادون بالقبة الهوائية كنت تراهم يبادرون إلى الغطس في الماء ويسبحون حتى يصلوا إلى جزيرتهم وأمارات الجزع والهلع لائحة على أطوارهم وهيئاتهم.

وبعد أن استقرءوا مدة ساعتين قال ديك: ما وجدنا شيئًا.

قال العلَّامة: مهلًا يا ديك ولا تقطع الرجاء منذ الآن؛ فلسنا بعيدين عن مقر الحادثة.

وعند الساعة الحادية عشرة تقدمت المنصورة تسعين ميلًا، ومن ثَمّ صادفت مهبًا دفعها إلى الجهة الشرقية بمسافة ستين ميلًا، وحامت وقتئذٍ فوق جزيرة متسعة كثيرة السكان، حسبها العلَّامة جزيرة فرَّام حيث توجد عاصمة البيديوماه وعند كل أجمة كان يرجو فرغوسن أن يسمع صوت يوسف يناديه، فقال في نفسه: عساه حرًا لم تأسره البرابرة؛ فأننا ننشله بلا تعبٍ ولا إعياء، وهب أنه أسير فسنفعل بشأنه ما فعلناه بذلك المرسل العازاري، وهكذا يعود إلينا بالسلامة.

ولكن لم يسمعا له صوتًا، ولم يشاهدا له أثرًا، فكان ذلك مما يوجب

اليأس والقنوط.

وفي الساعة الثانية والنصف بعد الظهر وصلت المنصورة إلى قبالة قرية تنغاليا الكائنة على جانب شاد الشرقي، وهي النقطة الأخيرة التي وصل إليها القائد دنهام وقت دخوله في بطون إفريقية.

فشمل قلب فرغوسن القلق والاضطراب من جراء تداوم اتجاه الريح؛ لأنه رأى أنها تدفعه إلى الجهة الشرقية حيث مركز إفريقية والقفار والبوادي التي لا نهاية لها ولا مناص منها.

فقال وقتئذٍ لرفيقه ديك: لا بدَّ من الوقوف ههنا والنزول إلى الأرض، وينبغي لنا الرجوع إلى البحيرة حبًا في صالح رفيقنا يوسف، وقبل كل شيء فلنجد مهبًا مخالفًا للمهب الحالي.

فلبث مدة ساعة وهو ينتقل من طبقةٍ إلى طبقة في الجو، وما انفكت المنصورة تنخفض إلى الأرض، ولكن بعلو ألف قدم صادفت ريحًا شديدة دفعتها إلى شمالي الغرب.

ولما عاد العلَّامة ورأى شاطئ البحيرة الشمالي أخذ يظن في نفسه أن يوسف ليس بموجود أصلًا في جزيرة من جزائر البحيرة، وإلَّا كان أظهر ذاته لرفيقيه بأي واسطةٍ كانت، ثم قال عسى أن الإفريقيين ذهبوا به إلى البر.

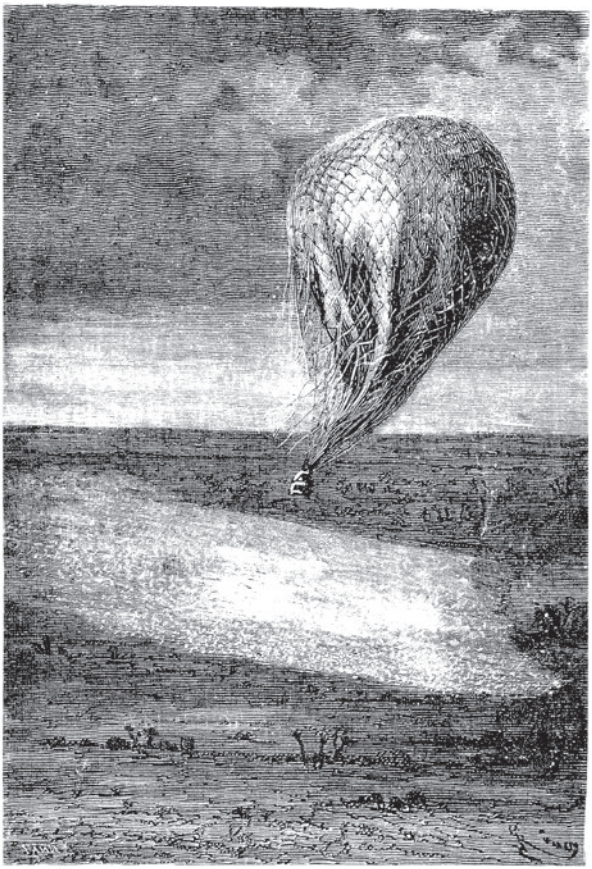
ولم يخطر قط ببال الرفيقين أن يوسف ذهب فريسة الغرق لأنه ماهر في فن السباحة، ولكن هنا طرقهما تصور هائل وهو أن التماسيح كثيرة الوجود في تلك النواحي، وقد اعترى هذا الفكر جنان كليهما، ولكن

لم يتجاسر أحدهما أن يكاشف به الآخر، بل إنه دهمهما علنًا، حتى إن العلَّامة ما تماسك أن قال بدون ديباجة: لا تلبث التماسيح إلَّا على شواطئ الجزائر أو البحيرة، وليوسف فطنة كافية لتجنبها، وهي أيضًا قليلة الخطر؛ لأن أهل ذلك البلد يسبحون في الماء ولا يخافون من وثباتها.

فما فاه ديك بجواب، بل آثر السكوت على المباحثة في هذا الأمر المكدر.

وعند الساعة الخامسة مساء أشار العلَّامة إلى قرب مدينة لاري، ولما وصلا إليها شاهدا سكانها منشغلين في حصاد الأقطان أمام أكواخهم المبنية من القصب المجدول وسط حظائر نظيفة ومنتظمة، وكان مجموع تلك الأكواخ البالغة نحو الخمسين واقعًا في أرض منخفضة في وادٍ متسع قائم بين جبال غير مرتفعة، ودفعت الريح لشدتها منصورة السوَّاح أكثر مما كان يرغب فيه العلَّامة، ولكن لم تدم على ذلك الحال، بل انقلبت مرة ثانية وأرجعته إلى مركز سفره؛ أي الموضع الذي قضى فيه ليلته السالفة، ثم تعلّقت المرساة في رزم من القصب القائم هناك بكثرة عظيمة؛ إذ لم تصادف شجرة تلتصق بأغصانها.

ثم كابد العلَّامة صعوبة كلية لتهدئة المنصورة من شدة الريح، لكنها خمدت بدخول الليل، وسهر الرفيقان كلاهما وهما مكبلان بقيود القنوط.



الفصل الثاني والثلاثون

في الزوبعة الشديدة وما انشغل به الرفيقان من الفكرة المكدرة وهبوب الريح المضادة والموافِقة والرجوع إلى الجنوب

وعند الساعة الثالثة صباحًا هبت نفحة شديدة شبه العاصفة، وكادت المنصورة تهوي إلى الأرض من تقلبها بأيدي تلك الريح، والقصب الذي حولها يتمايل ويهدد القبة بالتمزيق.

فقال العلَّامة: هيا بنا إلى الرحيل يا أيها الخليل؛ لأن حالتنا لا توافقنا.

فقال ديك: ويوسف هل نتركه؟!

قال العلَّامة: معاذ الله تعالى أن أتركه أو أنساه، ولو دفعتني العاصفة إلى مائة ميل في الشمال فإني أعود إليه، ولكن هنا خطر على جميعنا.

فصاح الصياد بصوت الكآبة وانجراح الفؤاد، وقال: كيف نرحل بدونه؟! قال العلَّامة: أتظن يا ديك أن فؤادي ليس بمجروح مثل فؤادك على فراقه؟... ولكن هلَّا تضطرنا الضرورة القصوى إلى الرحيل من هنا؟

فقال الصياد: ها أنا ذا بين يديك؛ فلنرحل إذًا!

ولكن حال دون ارتحالهما صعوبة جزيلة؛ لأن المرساة كانت مشتبكة اشتباكًا شديدًا، ولم يقوَ الصياد على اقتلاعها، فكانت الريح تدفع القبة وتقلبها على وجهٍ مخالف، وأضحى حال ديك في خطر مبين، لأنه خاف أن تفلت المرساة برمشة عين، وترحل القبة إلى المواطن الجوية قبل أن يبلغ إليها.

فلم يرغب العلَّامة في أن يعرض رفيقه لهذا الخطر، بل أدخل الصياد إلى المركبة، وصمم على قطع حبل المرساة، وعندما قطعها قفزت المنصورة قفزة هائلة إلى العلاء، وسمت عن الأرض نحو ثلاثمائة قدم، وسارت نحو الشمال على الخط المستقيم.

فانقاد فرغوسن لتلك الزوبعة، وكتف ذراعيه على صدره وهو في المركبة غارقًا في بحرٍ من الأفكار الحزينة.

وبعد سكوته برهةً التفت إلى رفيقه ديك وقال: إننا لربما جربنا المولى لأنه لم يُعْطَ للإنسان أن يرحل بمثل هذا الرحيل!

قال هذا وتنفس الصُّعَدَاء من قلب جريح.

قال الصياد: لقد هنأنا بعضنا البعض من برهة، بعض أيام، لتخلصنا من الأخطار والويلات الكثيرة في رحلتنا الإفريقية؛ هل ترانا ننقض الآن المقال؟!

فصاح العلَّامة قائلًا: وا أسفاه على يوسف البئيس، ذلك الشهم الكريم

المجبول باللطف والمروءة، ذي الطبع السليم الريان من ماء المكارم والفتوَّة! فإنه بعدما أخذ عقله بالثروة والغنى من الكنوز الثمينة فما تماسك أن ضحى بها جميعا فها هو ذا الآن بعيد منا، والريح تدفعنا بسرعةٍ لا ضدَّ لها وتقصينا عنه.

قال ديك: ولكن فلنفرض سيدي فرغوسن أن يوسف التجأ إلى إحدى القبائل الكائنة في بحيرة شاد؛ أما نراه يتمكن من الرجوع إلى بلاده كما عاد دنهام وبرث إلى الأوطان؟!

قال العلَّامة: ولكن يا صاحبي ديك؛ ألَا تعلم أن يوسف يجهل لغة هؤلاء الأقوام ولا يعرف كلمة واحدة منها، وهو وحده لا رفيق له ولا حيلة؟

واعلم أن السواح الذين تكلمت عنهم كانوا قبل أن يتقدموا في البلاد يرسلون الهدايا العظام إلى رؤساء الأقوام ومعهم أيضًا فرقة من الجنود الشاكين بالسلاح المستعدين لهذه الرحلات، ومع كل ذلك كان لابد لهم من احتمال العذابات والمشقات بأسوأ حال؛ فماذا ترى إذًا يحل برفيقنا المسكين فإن هذا الفكر يقاتلني ويؤلمني، وفي حياتي قط لم أتكبد حزنًا أشدَّ مرارةً.

قال ديك: ولكن سنرجع إليه سيدي صموئيل.

قال العلَّامة: إننا سنرجع ولو ألجأتنا الأحوال إلى ترك المنصورة أو العودة إلى بحيرة شاد راجلين، بل إلى فتح المخابرات مع سلطان البرنو؛ فإني لا أظن أن العرب عندهم سوء ذكر نحو الإفرنج الأولين.

فأجاب الصياد بعزم وحماسة القلب: وسأتبعك إلى حيث سرت؛ فلك أن

تعتمد عليَّ، وإذا لزم الأمر أبينا تتميم سفرتنا، وكما أن يوسف أظهر خلوصه نحونا وأوقع نفسه في المهلكة حبًا فينا فإننا نضحي بأنفسنا لأجله.

فأحيا هذا الكلام روح الشجاعة والشهامة في قلب السائحين، وشعرا أنهما متشددان بالفكر نفسه، ثم عمل العلَّامة على أن يلقى مهبًا مخالفًا يقربه من بحيرة شاد، وبذل جهده في ذلك غير أنه قد تعسر عليه حتى النزول إلى تلك الأراضي لكون الزوبعة ما زالت شديدة الهبوب.

وهكذا مرت المنصورة بإقليم تيبوس، وجازت قفرًا ذا أشواك يعرف ببلد الجريد، وهو على تخوم بلاد السودان، ثم دخلت بادية الرمال المخططة بآثار القوافل، فشاهدوا الروضة التي في تخوم البادية مكسوةً بالخضار وفيها آبار كثيرة تحتاط بها الأشجار الجميلة، وهي أعظم روضةٍ في البلاد الإفريقية، لكنهم لم يستطيعوا الوقوف فيها، ولكن لم يخل القفر من قوم عربان وبعض الخيام والآبال المادة رؤوسها فوق الرمال شبه رؤوس الأفاعي، فمرَّت المنصورة فوقها كنجم خرار، وهكذا طافت مسافة ستين ميلًا ببرهة ثلاث ساعات، وفي تلك المدة كلها لم يستطع فرغوسن أن يقمع القبة الهوائية في مسيرها.

فقال حينئذٍ: ما هذه الحالة التي نحن فيها؟ إننا لا نستطيع الوقوف ولا النزول؛ إذ ليس شجرة ولا صخرة نلقي عليها مرساتنا؛ فهل يا ترى أزمعنا أن نجوز الصحراء من أقصاها إلى أقصاها؟ في الحقيقة إن المولى سبحانه وتعالى يعارضنا في نيل منانا.

وفيما كان يتفوه بهذا الكلام، وأمارات الغيظ واليأس مستولية على

محياه، إذ لاح له من الشمال أنّ رمالَ البادية ثائرة في وسط غبارٍ كثيف، وهي تدور محركة من المهبات المتضادة المشتبكة في الجو.

وكان في وسط تلك الزوبعة قافلة بكاملها مبتلعة من وثوب تلك الرمال الطيارة، وقد تبددت شذر مذر؛ إذ لعبت بها أيدي الرياح فكنت تسمع حينئذٍ أطيط الآبال وحنينها وتأوه الناس وصراخ يأسهم وانقطاع قلبهم، وتارة كان يطير عنهم ثوب مشكل الألوان ويحوم مع الرمال، وفوق هذا جميعه كان عصف الزوبعة يشبه قصيف الرعد بالهدير والعجيج.

وبعد ذلك أخذت الرمال في التكدس؛ بعضها فوق بعض، وتألفت منها آكام وربوات؛ فحيث كانت السهلة الممتدة كالبساط قامت علوة فوق القافلة بمثابة رَمْسٍ لها.

فتأمل الرفيقان هذا المشهد المرعب ووجههما مكلل بالاصفرار، وما عاد في إمكانهما أن يسوسا القبة الهوائية الدائرة في وسط مجاري الرياح المتضادة حتى لم يعد ينفعها انتشار الغاز وامتداده، ولما وقعت في شباك تلك الفوارة الهوائية أخذت ترتجف وتسرع في مسيرها وتذبذبت تذبذبًا هائلًا، وجعلت الآلات الموضوعة في المركبة يلاطم بعضها بعضًا حتى كادت تتحطم ومالت الأنابيب حتى أوشكت أن تنقطع وصارت صناديق الماء تتناقل من مكانها بضجة وحركة شديدة، وتعسر على السائحين أن يسمع أحدهما صوت الآخر، مع أنهما غير مفترق أحدهما عن الآخر بمسافة قدمين، وكان كلّ منهما متمسكًا بالحبال ومحاولًا أن يمكث ثابتًا رغمًا عن هياج الزوبعة.

وكان شعر الصياد مبعثرًا وهو ينظر إلى الرياح صامتًا ساكتًا، وأما

العلَّامة فحوَّل هيئته إلى الجسارة والجراءة حسب عادته عندما ألمت به الأخطار، ولم تَلُحْ على وجهه أمارات الاضطراب الشديد، بل كان في رواق تام، ولم يضطرب أيضًا عندما وقفت المنصورة فجأةً في الطبقات الجوية بعد أن دارت على ذاتها دورة أخيرة، ثم غلبت ريح الشمال وظفرت بجميع الرياح وعكست مسير المنصورة وذلك بسرعة زائدة كما جرى في الصباح.

فصاح ديك قائلًا: وإلى أين نحن ذاهبون؟!

فقال العلَّامة: دع العناية الإلهية تفعل بنا ما تشاء؛ فإني قد أخطأت بعدم اتكالي عليها وهي عارفة بما يوافقنا أكثر منا، وهانحن أولاء راجعون إلى الأماكن التي أيسنا من العودة إليها.

وأما الطريق التي سارت فيها المنصورة فاختلفت قليلًا عن الطريق التي أتوا منها صباحًا، ولذا شاهد السائحان في خلال الساعة التاسعة فسيح البادية عوضًا عن مشاهدة سواحل بحيرة شاد.

فأشار ديك إلى العلَّامة بهذا الأمر.

فقال العلَّامة: هذا لا يهمنا كثيرًا، ويكفينا أن نرجع إلى الجنوب؛ فإننا نصادف هناك مدائن البرنو وودية وكوكا ونحط فيها لا محالة.

فقال ديك: حيث أنت راضٍ بما نحن عليه ومنشرح الخاطر فأنا على ما أنت عليه، ولكن أرجو المولى ألَّا يدعنا نطوف الصحراء فيحل بنا ما حلَّ بأولئك الأعراب التعيسي الحظ، وفي الحقيقة إن ذلك المنظر أثر في وأرعب مني الفؤاد.

قال العلَّامة: إن هذا الأمر كثير الحدوث؛ فإن أخطار التطواف في القفار يضاهي أخطار السفر في البحار؛ لأن البادية تتناول جميع أخطار البحر حتى والابتلاع نفسه، وزد على ذلك أن البادية فيها أتعاب ومشقات لا يطاق احتمالها والتجلد لها.

قال كنادي: أرى الريح مائلة إلى الهدوء والاستكانة؛ فإني أشاهد غبرة الرمال تخف كثافة، وتموجها يقل، والأفق يأخذ في الانجلاء من غشاوته.

قال العلَّامة: حسنًا تفعل الريح بهدئها؛ فعلينا أن نفحص الأفق لئلا تفوتنا نقطة واحدة لا ننظر إليها.

قال ديك: دع هذا الأمر عليَّ؛ فإني أنبئك حالًا عندما أصادف أول شجرة.

قال هذا وأخذ المنظرة، وجلس في مقدم المركبة.



الفصل الثالث والثلاثون

في قصة يوسف وما كان من عبادة الإفريقيين لهُ ووصوله إلى أرياف
البحيرة وسفره راجلًا ومكابدته المشقة والتعب والجوع ومرور
المنصورة وارتحالها وبأسه وصراخه الأخير

فماذا يا ترى قد أصاب يوسف في غضون تفتيش العلَّامة عليه وتكبده التعب الباطل حبًا فيه.

فاعلم وفقك الله أن يوسف في سقوطه في البحيرة أول ما بدا منه كان أنه نظر إلى العلاء فرأى المنصورة قد سمت عن البحيرة وعلت بسرعة إلى الجو، ثم غابت عن عينيه باتجاهها إلى جهة الشمال، فأيقن حينئذٍ أن سيده وصاحبه ديك فازا بالنجاة.

ثم قال في نفسه: إنه ضرب من السعادة والحظ ما طرقني من الفكر أن أرمي بنفسي في البحيرة فداءً لرفيقي؛ لأنه ربما كان طرق هذا الفكر صاحبي ديك الصياد، فلو خيل بذهنه ما كان تماسك قط عن تتميمه بالفعل، ولأمر صوابي هو أن يبذل إنسان نفسه رغبة في نجاة اثنين؛ إذ يتفضل الاثنان على الواحد في كل حساب.

ولما اطمأن خاطره من هذا القبيل أخذ يهتمُّ بأمر نفسه؛ فإنه كان مقيمًا وسط بحيرة عظيمة جدًا وحولها أقوام يجهلهم بالكلية وربما هم من البرابرة المتوحشين، لكنه قال في ذاته: إن ارتعابي من هذا والفِكرَى فيه قبل أوانه لا يجديني نفعًا بل من الواجب عليَّ أن أضاعف حرصي وتحذري لأتخلص من حالتي، وإلَّا كنت أنا الخاسر.

وكان قد لمح جزيرة وهو في الأفق قبل أن تحمل الطيور الجوارح على القبة، وقد زعم يوسف أن تلك البواشق تصرفت تصرفا لائقا بشراستها المألوفة، فعزم إذًا على الذهاب إلى تلك الجزيرة، واستعان بجميع معارفه في فن السباحة بعد أن جرد نفسه من الثياب التي تربكه، فكانت سفرة ستة أميال في البحر لا ترعبه، ولهذا لما كان سابحًا على الماء ما افتكر قط بشيء سوى أن يسبح بنشاطٍ وأن يتجه خطًا مستقيمًا إلى ما قصده من المحطة.

وبعد أن مضت نحو ساعة ونصف نقصت كثيرًا المسافة الفاصلة ما بينه وبين الجزيرة، ولكن في اقترابه من الأرض دهمه تصور هائل من شأنه أن يحمله على الهرب وهو أن التماسيح كثيرًا ما تألف سواحل البحيرة، ولم يكن يخفى عليه ما تنطوي عليه تلك الحيوانات من النهامة وشدة الحريص في تلقف لحمان بني آدم.

فاضطرب يوسف من هذا الفكر رغمًا عما كان متصفًا به من الخلة المائلة به إلى الظن أن كل شيء في هذه الدنيا يجري مجراه الطبيعي، وخاف أن يلذ للتماسيح اللحم الأبيض؛ فلذا لم يتقدم إلى الساحل إلّا بحرص كلي وعينه محدقة بكل ما حواليه، ولما وصل إلى قرب ريفٍ مظللٍ بالشجر

الأخضر هب نسيم فاحت منه رائحة المسك الخارقة.

فقال: هذا ما كنت أخشاه؛ فإن التمساح غير بعيد عني، فغطس في الماء ولكن لم يغطس غطسًا عميقًا، ولذا ما تحاشى صدمة جسمٍ عظيم ذي خراشفَ مسنة فخدشت جسمه في ممره فحسب يوسف أنه ذهب فريسة له وجعل يسبح بسرعة من ناهز اليأس ثم طلع إلى سطح الماء وتنفس قليلًا ثم عاد فغاب في الماء وهكذا قضى برهة كابد فيها ضيقة وغمًا شديدًا رغمًا عما كان عليه من الجلد الغريزي ففي كل دقيقة كان يخال له أنه يسمع حركة ذلك التمساح ويراه فاغرًا ماضغيه ليبتلعه بلعة واحدة وفيما كان محتفظًا على ذاته من كل جانب وهو يسبح بلطافة إذا به يُمْسَك من ذراعه ثم من وسطه.

فتصور حينئذٍ أن قد حاق به التعس والويل، وفكر فكرة أخيرة بمولاه، وأخذ يصارع وينازع كقاطع الرجاء، وهو مع ذلك مشعر بأن قوَّة تجره إلى سطح الماء وليس إلى القعر، كما هي عادة التماسيح عندما تصطاد صيدًا.

فلما طفا وفتح عينيه نظر ذاته بين عبدين ذَوَيْ لون الأبنوس، ماسكَيْن به وهما يضجان بصوت غريب.

فما تماسك أن قال يا للعجب؛ فإني نجوت من شباك التماسيح ووقعت في شباك السودان، فلعمري هذه أحسن من تلك، ولكن كيف يا ترى يتجاسر هؤلاء على السباحة في مثل هذه المحلات؟!

فكان يوسف يجهل أن سكان جزائر شاد يسبحون في المياه الحالة

فيها التماسيح بلا خوف ولا قلق؛ لأن تماسيح تلك البحيرة شهيرة بقلة توحشها وعدم حرصها على أذية الناس.

فكان يوسف قد نجا من خطر لكنه وقع في غيره، فترك للتقادير أن تفعل فيه ما تشاء، وحيث لم يستطع الخلاف انقاد إلى الأسودين اللذين أتيا به إلى الساحل، ولم يُظْهِرْ على ذاته وجلًا.

فأخذ يردد في أفكاره قائلًا: لا شك في أن هؤلاء العبيد نظروا إلى المنصورة عندما حامت فوق البحيرة شبه وحش جوي، وقد شهدوا من بعيد سقطتي، فلا يبعد أن يبجلوا إنسانًا نزل من السماء ويتحفوه بإكرام خصوصي؛ فلندع الحوادث تجري مجراها.

نم للخطوب إذا أحداثا طرقت ... واصبر؛ فقد فاز أقوام بما صبروا
فكلُّ ضيقٍ سيأتي بعده سعة ... وكل صبرٍ وشيكًا بعدهُ ظفرُ

وفيما كان يتحدث بهذه الأفكار إذ وصل إلى ساحةٍ وفيها قوم سود من كل جنس وعمرٍ، وهي قبيلة من قبائل البيديوماه، ولم يستح من خفة ثوبه؛ فإنه كان على زِيِّ سكان ذلك القطر.

ولكن قبل أن ينتبه إلى حالته وموقعه رأى العبيد قد أخذوا في تبجيله وتعظيمه، فَطَمْأَنَ روعه من هذا الأمر، وإن أتى على باله حادثة كازه عندما ظهر القمر.

ثم قال في نفسه: أرى أني مزمع أن أصبح ثانية إلهًا وابنًا للقمر؛ فلا بأس من هذه الحرفة لأنها أحسن من غيرها عندما تكون إجبارية، وأمَّا الذي يهمني فهو أن أربح زمانًا حتى إذا أتت المنصورة فمرت فوقي أنتهز

الفرصة من حالتي هذه لأصعد صعودًا عجيبًا، وأجعل عابديَّ يتأملون في هذا المشهد الغريب.

ثم ازدحم القوم حوله وأخذوا يسجدون له ويضجون ويمسونه وأنس الجميع به، ولم يتهاملوا أن صنعوا له وليمة فاخرة مؤلفة من الحليب الحامض، وكان ذلك الحليب ممزوجًا بأرز مسحوق في العسل، فلما كان من دأب يوسف أن يقبل بكل ما يأتيه تناول الطعام معهم، وأكل كثيرًا، وهكذا أرى عابديه كيف أن الآلهة يتلقفون الأطعمة في الفرص غير الاعتيادية.

ولما أمسى المساء أتاه سحراء الجزيرة وضبطوا يده باحترام كلي، وجاءوا به مخدعًا أشبه كوخًا محتاطًا بالطلاسم السحرية، وقبل أن يدخله يوسف شاهد عظامًا مكومة حول ذلك المعبد، فنظر إليها نظرة قلقة، ثم خلوه فيه وتركوه، فأخذ حينئذٍ يجوب بيداء الأفكار في واقعته، وفي ما صمم عليه من النية.

ففي جانب عظيم من الليل ما برح يوسف يسمع غناء وترتيلًا وأصواتًا شبه أصوات الطبل، وقرقعة حديد تحلو في آذان الإفريقيين، ولما كان الرقص قائمًا على قدمٍ وساق حول الكوخ المقدس كان القوم يعرُّون بأصواتهم الضخمة، وجميع هذا تبجيلًا لمقام يوسف الفائق.

وكان يوسف ناظرًا إلى هذه الغوغاء من خلال جدران الكوخ المبنية من الطين والقصب، فلو جرت هذه الحادثة في وقت غير ذلك الوقت فلربما كان فرح فرحًا عظيمًا في تلك الطقوس الغريبة ولكن قد خيل في باله أمر أوقعه في بلبال؛ لأنه، وإن نظر إلى الأشياء بعين رائقة، بل مجردة، قد

ساءه وجوده في تلك البلاد الوحشية وبين أقوام برابرة.

وزد على ذلك أنه قل السواح الذين تجاسروا فقدموا إلى تلك الآفاق ثم عادوا فرجعوا إلى الأوطان، وعليه فإنه لم يثق كثيرًا بعبادتهم وتكريمهم له؛ لأن عظمات هذا العالم وأمجاده كانت عنده أباطيل، وله دواعٍ كثيرة لاحتقارها وعدم الاكتراث بها، ثم سأل نفسه بنفسه قائلًا: عسى أن عبادتهم تفضي أخيرًا بأكل المعبود؟!

فمع ارتباكه بهذه الأفكار التي من شأنها أن تلقيه في وهاد التأسف والكدر غلب عليه التعب ورقد في سبات لذيذ، ولربما طال معه هذا الرقاد حتى الصباح لو لم توقظه رطوبة غير منتظرة.

ثم أمست تلك الرطوبة ماء، وازداد ذلك في كوخ يوسف حتى وصل إلى أواسطه.

فقال: ما هذه الحال؛ أعذاب على عذاب؟... هل يا ترى أنا غارق في غمر المياه؟! فلعمري ما كنت في انتظار هذه الحيلة الغريبة وعلى كلٍّ لا أمكث محبوسًا حتى تبلغ المياه إلى رقابي.

وبعد أن تفوه بذلك المقال ضرب الحائط بكتفه فوجد نفسه في قلب البحيرة، ولم يعد يرى أثرًا للجزيرة، بل إنها غطست في الماء بالليل وقام مقامها سعة البحيرة.

فقال يوسف: بئس البلاد لأصحاب الأملاك لأنهم يعدمون رزقهم في برهةٍ وجيزة، ثم شدد قواه وضاعف نشاطه للسباحة من جديد.

فقد نجا يوسف من أيدي البرابرة بحادثةٍ من الحوادث التي كثيرًا ما تجري في بحيرة شاد؛ فإن جزائر كثيرة تتهوَّر في هذه البحيرة مع أنها تشاهد قبلًا صلبة نظير الصخور، وكثيرًا ما يأتي الأقوام المجاورون لها بغوث المساكين الذين يلجؤون إلى الفرار.

أما يوسف فلم يكن عارفًا بهذا الأمر، لكنه أخذه سبيلًا إلى تخلصه، وإذ لمح قاربًا تائهًا في البحيرة قد اقترب منه فرآه شبه جذع شجرة، حُفِرَ حَفْرًا خشنا، وكان فيه مِقْذَافَان، فطلع عليه ورأى مجرى ماء سريعًا فانتهز الفرصة وأخذ في المسير.

ثم قال: فلننظرنَّ قبلًا إلى أين نذهب وأرجو من كوكب الصباح أن يأتي بعوني لأنه من حسن عادته أن يهدي الناس إلى طريق الشمال.

فرأى أن مجرى الماء يبلغه ريف البحيرة الشمالي فسار مسرورًا، ولما كانت الساعة الثانية بعد انتصاف الليل صعد إلى علوة مغطاة بقصب شائكٍ لكنه بصر هناك بشجرةٍ وخيل إليه أنه يرقد على أغصانها كعلى فراش، فتسلقها يوسف وأخذ هناك في انتظار الفجر ولو امتنع عليه الرقاد.

وإذ وافى الصباح سريعًا حسب عادته في بلاد خط الاستواء ألقى يوسف لحظةً على الشجرة التي التجأ إليها فأرعبه منظرها رعبًا شديدًا؛ لأن الحيات والحرباء تغطي أغصان الشجرة من أعلاها إلى أسفلها، وكان ورقها إذ ذاك متواريًا تحت لفائفها، وإذا ما شاهد أحد تلك الشجرة قال عنها: إنها تنبت دباباتٍ، ولما بزغت أشعة الشمس أخذت تدب وتزحف وتلتف، فشعر يوسف برعب خالجه النفور ورمى بنفسه إلى الأرض بين فحيح الحيات.

ثم قال: هذا شيء غريب يصعب تصديقه.

فكان يَخْفَى عليه أن فوجل في رسالاته الأخيرة ذكر تلك الغرابة الظاهرة في سواحل بحيرة شاد؛ حيث تكثر الذبابات والهوام كثرة لا مثيل لها، وبعدما رأى يوسف ما رآه عزم على أن يشدد حرصه في المستقبل، وأخذ يسير إلى الجهة الشمالية الشرقية، وكان يعتني كثيرًا بتجنب الأكواخ والبيوت والخيام، وبالإجمال كل محل قابل لسكن الناس.

وكم من مرة قد رفع يوسف ألحاظه إلى العلاء وهو يرجو مشاهدة المنصورة، غير أنه ذهب تفتيشه عنها هدرًا، ولم ير لها أثرًا؛ فمع ذلك لم تنقص ثقته بسيده، أما حالته فكانت تقتضي صبرًا جميلًا وشجاعة عظيمة للتجلد عليها؛ إذ إنه كان مضنوكًا بالتعب متضورًا من الجوع لكونه لم يغتذِ سوى بالعروق ولب بعض الشجيرات، أو بأثمار من جنس النخل؛ فهذه كلها ليس من شأنها أن تقوي المعدة وتقيت المرء، ومع هذا كله فإنه تقدم نحو عشرين ميلًا إلى الناحية الغربية، وكان جسمه مخدشًا بالأشواك في أمكنة كثيرة وذلك لطلوعه إلى سواحل البحيرة، وأرجله كانت مخضبة بالدماء، فأصبح من ثَمّ مسيره عسرًا ومؤلمًا، فاحتمل هذا العذاب بصبر، ولما أمسى الماء عزم على أن يقضي ليلته في سواحل البحيرة.

فهناك اقتضاه الحال أن يقاسي لذع الهوام التي لا تحصى عددًا، وهي من أجناس كثيرة كالذباب والبرغش والبعوض والنمل الذي يبلغ طوله نحو نصف باهم، وهي تغطي الأرض كالبساط الممدود، فما مضى عليه نحو ساعتين إلّا تناثر الثوب الخفيف الذي يكسو جسمه، ولم يبق منه أثر؛

فإن الهوام قرضته كله، فكانت ليلة هائلة لم يستطع فيها يوسف رقادًا ولا راحةً البتة.

وفي غضون ذلك كانت الخنازير والجواميس الوحشية وغيرها من الحيوانات تضج بأصوات الغضب في الآجام أو تحت مياه البحيرة، وكانت أصواتها تدوي في ظلام الليل فلم يتحرَّك يوسف من مكانه، بل كابد من جراء ذلك عذابًا أليمًا كاد أن يذهب صبره ويفضي به إلى اليأس.

ثم وافى النهار بعد انتظار طويل فنهض حينئذٍ يوسف بسرعة ولما نظر حواليه نفرت نفسه؛ إذ رأى أن ضفدعة مُسِمَّة كبيرة وحشية قد ضاجعته ليلًا، ومن مجرد النظر إليها تقز النفس وتحمل على التكره، فأحس يوسف بتقلب أمعائه، ولكن قد تقوى من كرهه وعدا راكضًا إلى البحيرة وارتمى في مياهها، فرطب الماء قليلًا ما كان يكابده من الحكاك، ثم عاد إلى البر ومضغ بعض أوراق الشجر، وسار في طريقه بجلدٍ لم يدركه، وأصبح كأنه لا يدري ما يفعله، بل شعر بقوةٍ تعلو في قطع الرجاء.

ومع ذلك أخذ يضوره الجوع وصاحت عصافير بطنه؛ لأن بطنه لا يمكنه الاصطبار مثله، فاضطر إلى أن يربط جسمه بحزام نباتي، وأما عطشه فكان يرويه في كل دقيقة، وإذ أتى على باله ذكر ما احتمله في البادية من قلة الماء حسب نفسه سعيدًا لخلوه من هذه الحاجة الفائقة الجميع آلامًا.

ثم قال في ذاته: أين يا ترى هي المنصورة؛ فإن الريح تهب من الشمال وينبغي عليها أن ترجع فوق البحيرة، ولا بدَّ أن يكون سيدي صموئيل رتب القبة بموازنة جديدة، ولكن كفاه النهار البارح شغلًا فلا يبعد إذًا اليوم الذي فيه المنصورة... ولكن مالي ولها الآن فعليَّ أن أتصرَّف كأني

لست بمزمع أن أراها أبدًا، وإذا وصلت إلى مدينة كبيرة من مدائن البحيرة فإني أكون بمقام السواح الذين ذكرهم لي سيدي؛ فلماذا لا أنجو مثلهم؛ فإن كثيرين رجعوا إلى الأوطان وشاهدوا الخلان، فالشجاعةَ الشجاعةَ إذًا ولا اليأس أبدًا.

ففيما هو يتفوه بهذا المقال سائرًا في طريقه وصل إلى غاب وشاهد فيه قومًا متوحشين متألِّبًا بعضهم على بعض، أما هم فلم يدروا به لكونهم عاملين على سقي نبلهم بعصير نبات مُسِمّ، وهذه مشغلة عظيمة يهتم بها قبايل تلك البلاد بعيد حافل.

فاختبأ يوسف بين الآجام وهو لا يتنفس لئلا يحس به، وفيما هو رافع بصره إلى العلاء لمح المنصورة بذاتها سارية فوق رأسه بعلو نحو مائة قدم ومتجهة نحو البحيرة، فودَّ لو استطاع أن يسمع صوته أو يعلم رفيقيه بوجوده في تلك المحال، ولكن أَنَّى له من نيل هذا المرام؟!

وفي تلك الساعة أذرت عينه دمعة سخينة، ولكن لا دمعة اليأس والقنوط بل دمعة السرور ومعرفة الجميل الذي بدا من سيده نحوه؛ فإنه كان يستقرئ عنه ولا يريد أن يذهب من دونه، فاقتضى حينئذٍ أن ينتظر رحيل السودان حتى ينطلق راكضًا إلى أرياف البحيرة.

وأما المنصورة فتوارت عن البصر في طي الآفاق، فعزم يوسف على انتظارها هناك؛ لأنه قال في نفسه: لا بدَّ من رجوعها فرجعت حقيقةً، وإذ اتجهت نحو الشرق فركض يوسف وراءها وأومأ بيديه وصرخ وصاح بأعلى صوته، ولكن عبثًا لأن ريحًا شديدة دفعت القبة الهوائية بسرعة عظيمة نزعت منه كل أمل ورجاء.

ففي أول وهلة خارت فيه قوى الشهامة والرجاء، وظن أنه قد تاه في بيداء الهلاك، وحسب أن سيده رحل رحلةً أخيرة وما عاد يرجع إليه، فذهب عقله وأضاع كل فكرةٍ وبقي برهة لا حراك له جسمًا وعقلًا.

ثم شرع في المسير كإنسان فاقد العقل ورجلاه مخضبتان بالدماء وجسمه مخدش، ولبث ماشيًا كل النهار ومدة من الليل وتارة كان ينسحب على أقدامه وطورًا كان يتوكأ على يديه وكان يرى الساعة التي فيها تخور قواه ويأتيه الأجل لا محالة.

ففيما هو يتقدم إلى الأمام إذ وصل إلى قرب بطحةٍ، وكان قد جنه الليل، ثم سقط بلا معرفة في طينٍ لزجٍ وشعر كأنه يتساقط رويدًا رويدًا في تلك أرض الحماء تلك، وما مضت بعض الدقائق حتى رأى نصف جسمه مغمسًا في الطين.

فقال حينئذ: هوذا الموت... هوذا قد أقبل، ولكن يا لها من ميتة شنيعة! فاضطرب واختبط وأراد الخلاص فلم يفز به، بل ما زال يتعمق في الطين، وكان في حركته كأنه يحفر الهوَّة لنفسه، ولم ير بالقرب منه قصبة أو قطعة خشبية ليستند عليها فأيقن أن قد دنت ساعته الأخيرة وأطبق جفونه.

ثم صاح قائلًا: سيدي!... سيدي!... ما بالك لا تأتي إليَّ؟! تعال!... تعال!

فتاه ذلك الصراخ المنفرد؛ صراخ اليأس والقنوط في بوادي الظلام المدلهم.



الفصل الرابع والثلاثون

في ما كان من العربان المجتمعين وملاحقتهم لأحد المهزومين وقتل الصياد عربيًا برصاصة وانتشال يوسف من الأرض بصناعة وحرفة

فمنذما فوض العلَّامة أمر المراقبة إلى ديك الصياد ما انفك هذا عن التفرس في الأفق بحرص وانتباه لا مثيل لهما.

وبعد برهة التفت إلى العلَّامة وقال له: أرى هناك طائفة من الناس والبهائم مجتمعين ولكن لا يتميز شيء منها، بل إني أشاهدهم في حركة عظيمة لأن أمامهم غبار كثيف من الرمال يرتفع من الأرض.

فقال صموئيل: يمكن أن يكون هذا ريحًا مخالفة أو فوَّارة أزمعت أن تدفعنا إلى الشمال.

فنهض ديك ليفحص الأفق من جديد، ثم قال لرفيقه: أظن أنها طائفة من الغزلان أو من بقر البرية.

قال العلَّامة: إن ذا من المحتمل، ولكن اعلم يا ديك أن هذه الفرقة المتجمعة

تبعد عنا نحو تسعة أو عشرة أميال؛ فأنا إذا تطلعت بالنظارة الصغيرة لا أميز فيها شيئًا.

فقال ديك: على كلٍّ ها أنا ذا أراقبها على جميع الأحوال؛ لأني أرى فيها شيئًا غير اعتيادي يشغل بالي، وعلى ما أظن فإن هذا الازدحام إنما هو ازدحام خيالة يجارون في ميدان السباق... هو ذا... قد أصاب تخميني؛ فإنهم في الحقيقة خيالة... تطلع يا فرغوسن تطلع!

فتأمل العلَّامة بانتباه إلى تلك الفرقة المزاحم بعضها بعضًا، ثم قال: على ما أرى قد أصبت في ظنك؛ فإنها فرقة من عربان أم تيبوسية، والباين أنهم يركضون إلى الجهة التي نحن سائرون إليها غير أن عدوهم لا يوازي سرعة قبتنا، ولا يمضي نصف ساعة إلّا ونقف على الحقيقة ونعلم ما يجب علينا من العمل.

ثم أخذ الصياد منظرته وجعل يحدق بصره فتراءت له الخيالة المزدحمون بأكثر وضوح، وشاهد أيضًا بعضًا منهم ينفردون على جانب.

ثم قال لفرغوسن: في الحقيقة إن هذا سباق خيل؛ فكأنهم يتعقبون شيئًا وأود كثيرًا أن أرى ما هو موضوع مطاردتهم.

فقال العلَّامة: صبرًا يا ديك؛ فعن قريب نصل إليهم، بل نتجاوزهم إذا داوموا الجري في هذه الطريق نفسها، واعلم أن قبتنا تسير الآن بسرعة عشرين ميلًا في الساعة، ولا يوجد خيل يمكنها أن تجري بهذه السرعة.

فرجع ديك إلى المراقبة من جديد، ولم تمض بعض الدقائق إلَّا قال: إنهم عربان يركضون ركضًا شديدًا وقد ميزتهم حق التمييز وهم يبلغون

الخمسين، وها هي ذي برانسهم تعوم على جناح الريح؛ فإنها رياضة للخيالة، ورئيسهم يسبقهم على بعد مائة قدم وهم يجرون وراءه متتبعين آثاره.

قال العلَّامة: مَن ما كانوا فإني لا أخشى أذيتهم، وإذا اقتضت الحال ارتفعنا إلى المعالي.

قال ديك: اصبر قليلًا يا فرغوسن اصبر!

ثم استتلى ديك كلامه بعد فحص جديد وقال: إنه لأمر غريب حيرَّ فكري؛ لأني أرى شيئًا ما تمكنت من معرفته ولا تمييزه جيدًا، والباين من كد الخيالة وعدم مساواة جريهم أنهم مطاردون أحدًا لا لاحقون برئيسهم كما ظننت.

قال العلَّامة: وهل تؤكد ذلك يا ديك؟!

قال ديك: لا شك في هذا؛ لأني أشاهد الخيالة كأنها راكضة وراء صيدٍ، ولكنها ليست مصيدة حيوان بل إنسان، والذي يتقدمهم هو منهزم منهم وليس هو رئيسَهم وقد خالجه الاضطراب.

قال فرغوسن: أَلَعَلَّه منهزم؟

قال ديك: أي نعم سيدي.

قال العلَّامة: لا نحولنَّ إذًا بصرنا عنهم، ولننتظرنَّ ما يحدث.

فسارت القبة مسافة ثلاثة أو أربعة أميال فوق هؤلاء الخيالة الجارين

بسرعة شديدة.

وبعد أن قطعوا هذه المسافة صاح ديك بصوت مرتجف وقال: سيدي صموئيل!... سيدي فرغوسون!

قال العلَّامة: ما بالك؟!.... احكِ!

قال ديك: هل هو حلم أم خيال؟!... هل هذا ممكن؟!

قال العلَّامة: وما معنى قولك؟!

قال ديك: تصبر عليَّ!

قال هذا ومسح زجاجة المنظرة وجعل يحدق بصره من جديد.

فقال العلَّامة: قل إذًا ما هذا!

قال ديك: هو هو بنفسه يا صموئيل!

فصاح العلَّامة قائلًا: هو هو بذاته «فقد أعنى بلفظة هو هو عن مراده ولم يَحْتَجِ الأمر إلى إيضاح».

ثم قال ديك: إنه راكب فرسًا ومنهزم من أمام أعدائه .... وهو بعيد عنهم نحو مائة قدم.

قال العلَّامة، وقد علا وجهه الاصفرار: عافاك الله يا يوسف!

قال ديك: لا يمكنه أن يرانا في انهزامه وجريه.

قال العلَّامة: لا بد يا ديك من أن يرانا.

قال هذا وخفض حرارة القصبة.

قال ديك: وكيف ذلك؟!

قال العلَّامة: لا تمضي خمس دقائق إلَّا ونقترب من الأرض حتى لا نعلوها إلَّا 50 قدمًا، وبعد خمس عشرة دقيقة نصبح فوق رأسه.

قال ديك: ألا يلزم أن ننبهه بطلقة بارودة.

قال العلَّامة: كلا؛ فإنه لا يستطيع الرجوع إلى الوراء؛ وإلَّا ذهب فريسة أعدائه.

قال: وما العمل؟!

قال: الصبرَ يا صاح!... الصبرَ!

قال ديك: الصبرَ!... وهؤلاء العربان؛ ما العمل فيهم؟!

قال العلَّامة: إننا نلحقهم ونسبقهم، ولسنا ببعيدين أكثر من ميلين فقط فليبق حصان يوسف جاريًا مجراه ولا نخشى العربان.

قال ديك: إلهي!... إلهي!

فقال العلَّامة: وما الذي جرى؟!

فإن ديك صاح بصوت ميئوس منه عندما شاهد يوسف مصروعًا على الحضيض لأن حصانه قد أعياه التعب فسقط على الأرض خائر القوى.

فقال العلَّامة: إنه بصر بنا، وفي نهوضه أشار إلينا بحركة يدٍ.

قال ديك: ولكن قد أوشك العربان أن يلحقوا به؛ فما الذي ينتظره؟! لله الحمد؛ فإنه شهم باسل... عافاه الله عافاه!

فكان يوسف بعد سقوطه نهض حالًا؛ إذ وثب عليه خيال ثم قفز كالفهد وحاد يسيرًا عن طريقه ثم انقض على فرسه كالباشق ومسكه من عنقه وخنقه بأصابعه الحديدية ويديه العصبية وجندله على الأرض طريحًا وأخذ في انهزامه بسرعة الطير.

فصاحت العربان بصوت عظيم دوى في الآفاق، ولكنهم لم يشاهدوا قط المنصورة، التي كانت تبعد عنهم نحو خمسمائة قدم، وهي تعلو عن الأرض ثلاثين قدمًا فقط، إلَّا أنَّ واحدًا منهم قارب يوسف وحاول أن يضربه برمحه، ولما كان ديك الصياد شاخصًا إياه أوقفه برصاصةٍ واحدةٍ وصرعه على الأرض.

فلم يلتفت يوسف أصلًا لصوت الرصاص، بل داوم المسير، وأما الخيالة فوقف بعضهم، ومنهم من خرَّ على وجهه في الأرض عند مشاهدة المنصورة، ومنهم من داوم معاقبة يوسف.

فقال ديك: ولكن ما الذي يعمله يوسف؛ فإنه لا يقف؟!

قال العلَّامة: بل إنه يتصرف تصرفًا أوفق من الوقوف؛ فإني فهمت غايته، وهي أنه لا ينفك من المسير إلى جهة مسير القبة الهوائية، ويثق بفطنتنا وتدبيرنا، وسننشله من أيدي هؤلاء العربان، وهانحن أولاء بعيدون عنه نحو مائتي قدم فقط؛ لله دره من شهم فريد!

قال ديك: ما الذي يجب فعله؟

قال العلَّامة: دع بارودتك جانبًا!

فترك الصياد بارودته وقال: ها أنا ذا فعلت.

قال العلَّامة: أتستطيع أن تحمل بين ذراعيك ثقلًا يوازن مائة وخمسين ليبرة إنكليزية؟

قال: وأكثر من ذلك.

قال العلَّامة: لا لزوم لأكثر، بل هذا كافٍ.

فرفع العلَّامة أكياس الرمل وناولها لديك ليحملها بين ذراعيه.

ثم قال: البَثْ واقفًا في مؤخر المركبة، وكن متأهبًا لأن ترمي هذا الرمل كله دفعة واحدة، ولكن بحياتك لا تفعل ذلك قبل أمري!

قال ديك: ثق بي وكن مطمأن البال.

قال العلَّامة: وإلَّا خسرنا يوسف وذهب فريسة الهلاك.

قال الصياد: لا تخف يا فرغوسن، وألقِ عليَّ هذا الهم.

فوصلت المنصورة فوق رؤوس الخيالة الذين ما انفكوا من تتبع أثر يوسف.

وأما العلَّامة فوقف في مقدم المركبة وهو ماسك السلم منشورًا ومستعدًا لأن يلقيه في الدقيقة الموافقة، وكان يوسف بعيدًا عن أعدائه نحو خمسين

قدمًا، أما المنصورة فتقدمتهم.

ثم قال فرغوسن لديك: انتبه يا صاح!

قال ديك: ها أنا ذا حاضر وعلى أُهْبَةٍ.

ثم صاح العلَّامة بصوته الرنان: عليك عليك يا يوسف!

قال هذا ورمى السلم فوصلت الدرجة الأخيرة إلى الأرض وأثارت غبرة من الرمال.

فعندما نادى العلَّامة يوسف لم يقف هذا في محله بل التفت قليلًا فوصل السلم بالقرب منه، وفيما كان يتماسك به صاح العلَّامة إلى ديك قائلًا: أَلْقِ الرمل يا ديك!

فقال ديك: قد فعلت.

فلما خفت المنصورة من ثقل يفوق ثقل يوسف ارتفعت في العلاء حالًا، وبلغت علو مائة وخمسين قدمًا فوق الأرض.

وعندما ارتفعت المنصورة وتذبذبت كثيرًا في صعودها كان يوسف متمسكًا شديد التمسك بحبل السلم، ثم أشار إلى العربان إشارة غريبة وداعًا لهم، وتسلق السلم بخفة البهلوان ووصل إلى رفيقيه فاقتبلاه بين الأحضان.

فضجت العربان وقتئذٍ بأصوات الدهشة والغضب لأن المنهزم طار من بين أيديهم وابتعدت عنهم المنصورة بعدًا شاسعًا.

هتف يوسف: سيدي!... صاحبي ديك!

قال هذا ووقع مغشيًا عليه من شدة الاضطراب والإعياء، فيما كان ديك كأنه في بحر الهذيان يصيح قائلًا: قد خلص!... قد فاز بالنجاة!

أما العلَّامة فرجع إلى رواقه القديم وقال: أواه ما هذه الحالة؟!... حالةَ يوسف؛ فإن يوسف كان متجردًا من أثوابه وليس على جسمه إلَّا رسم من الكسوة.

وأما ذراعاه فكانتا مخضبتين بالدم، وجسمه كان مثخنًا بالجراح؛ فكل هذا دلَّ على ما تكبده من العذاب والشقاء، فنهض العلَّامة حالًا، وضمد جراحه وأنامه داخل الخيمة.

وبعد برهة استفاق من غشيانه وطلب كأسا من العرق، فما أراد العلَّامة أن يرفض طلبه لأن يوسف لم يكن يطبب كسائر الناس، وبعد أن شرب أخذ بأيدي رفيقيه، وقال لهما إنه مستعدٌّ لأن يقص قصته.

فلم يسمح له رفيقاه بالتكلم في تلك الساعة، وعليه عاد فرقد رقادًا ثقيلًا كان في غاية الاحتياج إليه.

فسارت حينئذٍ المنصورة خطًا منحرفًا إلى جهة الغرب وعندما اشتدت الريح وصلت إلى حد القفر الشائك فوق النخلات التي قد أحنتها أو اقتلعتها الزوبعة، وبعد أن سارت مائتي ميل منذ انتشال يوسف جازت مساء الدرجة العاشرة من الطول.



الفصل الخامس والثلاثون

في طريق الغرب ويقظة يوسف وعناده وتتمة قصته ووصول السواح
إلى تجلة وقلق الصياد واتجاه المنصورة نحو الشمال

ثم سكنت الريح من مهبها الشديد وقرت المنصورة على رأس جميزة عظيمة.

فسهر كل من العلَّامة وكنادي في حراسة القبة، أما يوسف فانتهز الفرصة وغرق في سبات مريح مدة أربع وعشرين ساعة بغير انقطاع.

فقال العلَّامة: هذا الدواء النافع ليوسف؛ أعني به الرقاد، فإن الطبيعة تأتيه بالشفاء من تلقاء نفسها.

ولما كان النهار عادت الريح شديدة متقلبة؛ فكانت تهب تارةً نحو الشرق وتارة أخرى نحو الجنوب، غير أنها هبت أخيرًا آخذة المنصورة إلى الجهة الغربية.

فتطلع فرغوسن إلى الرسوم الجغرافية ورأى أنه قائم في مملكة دامرغو،

وأراضي تلك البلاد مفوجة السطح، لكنها ذات خصبٍ وريعان، وبيوتها مبنية بقصب تتخلله أغصان شجرة يقال لها اسكابية، وترى فيها المطحنات مرتفعة فوق أخشاب متصلبة، وذلك خوفا من هجوم الجرذان عليها.

وما مضت برهة إلَّا وصل السواح إلى مدينة زندر المشهورة بمحل العقاب المتسع القائم فيها، فترى في وسطه شجرة الموت، وكل من مرَّ بفيئها يمسكه الجلَّاد الجالس دوامًا عندها ويشنقه على تلك الشجرة في الساعة والحال.

ثم تطلع الصياد إلى البوصلة وقال لفرغوسن: هو ذا؛ رجعنا إلى طريقنا الشمالية.

قال العلَّامة: لا بأس منها إذا قادتنا إلى تمبوكتو؛ فإن رحلتنا لا تماثلها رحلة توفيقًا ونجاحًا.

فقال يوسف، وقد مد رأسه من خلال ستار الخيمة، وأمارات السرور على محياه: ولا تماثلها رحلة بتوفيق صحة أصحابها.

قال ديك: ها هو ذا صاحبنا الشهم الفريد ومخلصنا الوحيد؛ كيف حالك يا يوسف؟

قال يوسف: بألف خير كجاري عادتي وطبيعتي؛ فإني لم أر أبدًا نفسي منشرح الصدر أكثر مني في هذه الساعة، وكيف لا يتنشط من قد تحمم مثلي في بحيرة شاد، ثم مشى برهةً لانشراح صدره؛ فما قولك يا سيدي؟

فقال له العلَّامة: لله درك من شهم فريد!... ولكن كم سببت لنا من القلق والغم والرعب والهم!

قال يوسف: أتظن أني كنت على طمأنينة قلب من قبلكم؟... كلَّا؛ بل يمكنكما أن تفتخرا بما سببتما لي من الفزع الشديد.

فقال العلَّامة: إذا قلبت المسألة على هذا النسق فلا نتفق إذًا على رأي!

قال الصياد: أرى أنه لم يتغير أصلًا من بعد سقطته.

فقال العلَّامة: إن حبك يا يوسف كان حبًا خالصًا لنا، وهو الذي نجانا من الهلاك لأننا كنا ساقطين في البحيرة بسرعة كلية وعلى الخط المستقيم؛ فلو غطست المنصورة في الماء مَنْ تراه كان نشلها ونشلنا!

قال يوسف: ولكن إذا كان انقلابي الذي تنازلت إلى أن تدعوه حبًا قد خلصكم ألم يخلصني أنا أيضًا؛ إذ إننا الثلاثة لا نزال على أحسن حال وأجود صحة، وبالنتيجة فليس لأحدٍ أن يعزو التقصير لنفسه أو لخلافه.

قال الصياد: سبحان من كوَّن طبعك يا يوسف!... فإنك لا تسلم معنا بشيء.

فقال يوسف: أحسن واسطة للاتفاق إنما هي أن ننسى هذه المادة ولا نتكلم عنها؛ لقد جرى ما جرى، إن كان قبيحًا أم مليحًا فلا عودة إليه.

فقال العلَّامة ضاحكًا: يالك من عنيد! فعلى القليل لا تتماسك أن تحكي لنا قصتك.

قال يوسف: إذا كان لا بدَّ من ذلك فعلى الرأس والعين، ولكن أرغب قبل أن أخبر قصتي في أن أشوي هذا البط المدهن، فإني أرى أن الصياد لم يدع زمانه يذهب باطلًا.

فقال له الصياد: إن الأمر كما قلت.

قال يوسف: عن قريب نرى كيف يسلك الصيد الإفريقي مع معدة إفرنجية.

وفي الحال شوى يوسف البط على لهيب القصبة وأخذ كل حصة، أما يوسف فكانت حصته وافرة لأنه لم يذق طعامًا منذ بضعة أيام، وبعد أن شرب الشاي والعرق أخذ يقص ما جرى له من الحوادث والوقائع، غير أنه كان يظهر في كلامه نوع من الهيجان والاضطراب، لكن لم ينفك ملاحظًا الحوادث بتفلسفه الاعتيادي، ولما كان العلَّامة يرى أن يوسف قد اهتم في خلاص سيده أكثر مما في نجاة نفسه كان يمسكه بيده علامة المعروف والشكران، وعندما جره الحديث إلى التكلم عن غرق جزيرة البيديوماه فسَّر له فرغوسن كيف أن هذه الحادثة كثيرة الوقوع في بحيرة شاد.

ثم وصل يوسف أخيرًا بسياق حديثه إلى الساعة التي فيها غطس في البطحة وصرخ صراخ اليأس الأخير.

فقال: سيدي لقد ظننت أني ولجت لجة الهلاك ولما اتجهت أفكاري نحوك أخذت أصارع وأخبط خبطًا شديدًا وقد عزمت عزمًا ثابتًا بأن لا أترك نفسي عرضة للابتلاع بدون مجاهدة ومعاندة، وإذا بي أبصر

شيئًا عن بعد قدمين، وما هذا الشيء إلّا طرف حبل مقطوع حديثًا، فبذلت جهدي وكدي حتى وصلت إلى ذلك الحبل فمسكته ورأيته لا ينجر معي فانسحبت عليه فإذا أنا على أرض صلبة، وشاهدت مرساة في طرف الحبل، فبالصواب أدعو تلك المرساة «عن إذنك يا سيدي» مرساة الخلاص؛ فإني عرفتها من مراسي المنصورة، ولهذا تبعت اتجاه الحبل الذي دلني إلى اتجاه المنصورة، وبعد أن كابدت شديد العذاب نجوت من السبخة، فتشددت قواي وتضاعفت شجاعتي فسرت مدة من الليل وأنا مبتعد عن البحيرة ثم وصلت أخيرًا إلى طرف غاب عظيم فشاهدت هناك حوشًا ترعى فيه خيل وهي لا تفتكر بشيء؛ ففي الحياة أوقات يحسن بها كل إنسان ركوب جياد الخيل ويجري كالخيالة، فما أخذت قط برهةً للتفكر، بل وثبت على جواد وشرعت أجري سريعًا إلى الجهة الشمالية، فليس لي أن أذكر البلاد التي لم أشاهدها ولا القرى التي تجنبت المرور بها، بل أقول إني جزت الحقول المزروعة وقطعت الآجام والسياحات وسقت حصاني وضربته، وأفرغت جهدي بالاستعجال فوصلت إلى حدود الأراضي المفلوحة وانتصبت البادية أمامي فقلت: ولا أحلى منها؛ لأني أرى ما أمامي وأراه من بعيد، وكنت أؤمل دائمًا أن المنصورة تنتظرني فخاب أملي ولم أر شيئًا حتى وصلت أخيرًا في برهة ثلاث ساعات إلى محطة عرب ووقعت وقعة الطير في أحبولة الصياد وأنا كنت المصيد.

اعلم يا سيدي ديك أن الصياد لا يعرف قيمة الصيد حتى يُصطاد هو بالذات، ومع ذلك إذا استطاع فليحترس من مثل ذلك الصيد.

هذا وكانت العربان تجد في إثري حتى أعيي حصاني واقترب مني أحد العربان فانقضضت على فرسه وصارعته وأخنقته، غير أني لم أفعل

ذلك بغضًا له، وعليه أؤمل أنه لا يريد لي سوءا من قبل ذلك، وحينئذٍ شاهدتكما وأنتما تعرفان بما جرى بعد هذا؛ فقد جرت المنصورة تابعة أثري ونشلتني كالطائر من الأرض؛ ألم يحق لي أن أثق بكما وبمعروفكما ولباقتكما، أما الآن فأسألك يا سيدي: هل ما جرى ليس شيئًا طبيعيًا بسيطًا جدًا وكثير الوقوع؟... وها إنني مستعد لأن أعيد العمل إذا أمكنِّي أن أنفعكما بأمر من الأمور ولكن كما قلت لك سابقًا لا تستحق المسألة أن نتكلم عنها.

قال العلَّامة: عافاك الله يا يوسف!... فإنك ذو شمائل وطبائع حسنى ما لها من مثيل، ولم نخطئ نحن أصلًا باتكالنا على ذكائك وفطنتك.

قال يوسف: على الإنسان أن يتبع جري الحوادث فينجو من المهالك، وعندي أن الطريق الأيمن لراحة البال هو اقتبال الأمور كما تقبل ألينا.

وفيما كان يوسف يحكي قصته قطعت المنصورة مسافة بعيدة في تلك البلاد، ثم أشار ديك إلى وجود أكواخ في الجهة الأفقية تظهر كأنها مدينة فنظر العلَّامة إلى رسومها وعرف أنها قرية «تجلة» في مملكة دامرغو، ثم قال سنجد هناك الطريق التي سلكها برث وفيها انفصل عن رفيقيه ريشردسون وأورويك؛ فكان ريشردسون متأهبا للمسير في طريق زندر، وأورويك كان مستعدًا للانطلاق إلى مارادي وكما لا يخفَى لم يرجع إلى أوربا من هؤلاء السواح الثلاثة سوى برث وحده.

فنظر الصياد إلى رسم اتجاه المنصورة وقال: فإذًا نحن متجهون نحو الشمال على الخط المستقيم.

قال العلَّامة: نعم نحن متجهون إلى الشمال قوامًا.

قال الصياد: أليس من شأن ذلك أن يسبب لك شيئًا من القلق؟

قال العلَّامة: ولماذا؟!

قال الصياد: لأن هذه الطريق توصلك إلى طرابلس فنضطر من جراء ذلك أن نطوف الصحراء الفسيحة.

قال العلَّامة: أؤمل أننا لا نذهب إلى بعدٍ كهذا ولا بهذه الطريق المشؤومة.

قال الصياد: وهل من نيتك أن تحل بمكان؟

قال العلَّامة: قل يا ديك؛ هل ترغب في زيارة تمبوكتو؟!

قال الصياد: تمبوكتو؟!

قال يوسف: أي نعم؛ لا يسوغ لأحد أن يسافر في أمصار إفريقية وتفوته زيارة تمبوكتو.

قال العلَّامة: فتكون الخامس أو السادس بين رجال أوربا الذين زاروا هذه المدينة العجيبة في غوامضها.

قال الصياد: فلنذهب إذًا إلى تمبوكتو!

قال العلَّامة: والحالة هذه دعنا نصل إلى ما بين الدرجة السابعة عشرة والثامنة عشرة من العرض، وهناك نتوقع ريحًا موافقة تقذف بنا نحو الغرب.

أجاب الصياد: نِعْم الرأي؛ إنما هل بقي علينا مسافة طويلة في جهات الشمال؟

قال العلَّامة: علينا مسافة مائة وخمسين ميلًا على الأقل.

عندها أجاب ديك: والحالة هذه أود أن أنام قليلًا.

قال له يوسف: نم يا سيدي، وأنت يا معلمي اقتفِ أثر ديك؛ فإنك محتاج إلى الراحة لأنني أسهرتك سهرًا زائدًا.

فاضطجع الصياد في المظلة، أما فرغوسن فقلما كان يؤثر فيه التعب، ولذا لبث راصدًا.

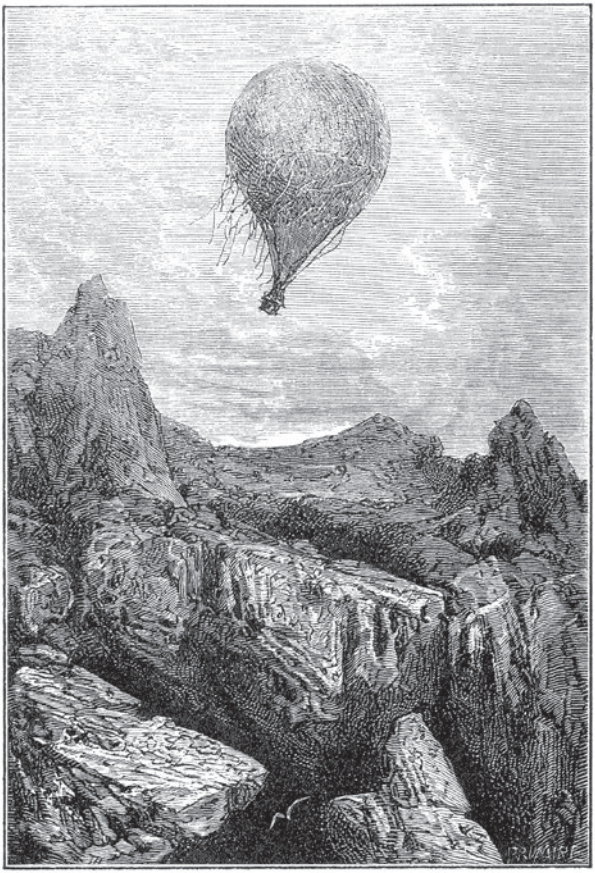
وفي برهة ثلاث ساعات كانت المنصورة تجوب بسرعةٍ لا مزيد عليها أرضًا مخصبة تعلوها سلاسل جبال شامخة قحلة، وتتخللها بعض أوطاد علوها أربعة آلاف قدم، وتلعب النعام والزرافة والوعل بخفة وسرعة عجيبة في وسط غابات من السنط ونبات المستحية والهيلج وشجر النخيل، ثم تلا الفلوات الغامرة أرض كساها ديباج النبات مطرزًا بالأنوار والألوان، وهي بلاد الكلواص، وهؤلاء يلقون على وجوههم براقع من قطن نظير جيرانهم التوارج الذين من يجاورهم لا يأمن على نفسه من الهلكة لشدة شراسة أخلاقهم وغلو توحشهم؛ ففي الساعة العاشرة مساء بعدما قطعت المنصورة تلك المسافة الطويلة وقدرها مائتان وخمسون ميلًا وقفت فوق مدينة كبيرة فكان يُرَى منها على ضوء القمر قسم بين عامر وغامر، وبعضُ رؤوس مآذن مرتفعة هنا وهناك تضربها أشعة النور فتظهر بيضاء، فالعلَّامة قد اطلع من حساب علو الكواكب أنه قائم تحت

خط عرض أغاد.

فكانت هذه المدينة قديمًا مركزًا لتجارة وسيعة جدًا إلّا أنها قد بدأت تتقهقر وتخرب قبل زيارة المعلم برث لها.

أما المنصورة فكانت غير منظورة عن بعدٍ فاستوت على الأرض على مسافة ميلين من أغاد في حقل وسيع مزروع ذرة بيضاء، وقضوا الليل بسكون وراحة، في الساعة الثالثة، بينما كانت ريح خفيفة تدفع القبة نحو الغرب بجنوب أغاد انبلج الصباح.

فأسرع فرغوسن في اغتنام هذا الطالع السعيد فارتفع سريعًا وفرَّ هاربًا.



الفصل السادس والثلاثون

في سرعة سير المنصورة وفي الأعمال الصادرة عن حكمة وفي الأثقال
وفي الأمطار المتراكمة وفي غاو والنهر الأسود والسواح كلبري وجوفروا
وغراي ومونغو برك ولينك وراني كالية وكلابرتون وجون وريشار لندر

فقضي اليوم السابع عشر من آيار بهدوء وسكون وبدون عارض مكدر، وعادت تظهر المفازة، وكانت ريح معتدلة تحمل المنصورة ما بين الجنوب والغرب بدون أن تميل يمنة أو يسرة، بل كان ظلها يرسم على الرمل خطًا مستقيمًا لم يشوهه أدنى انحراف أو اعوجاج.

وكان العلَّامة قبل سفره قد جدد مؤنتها ماء؛ إذ كان يخشى أنه يمتنع عليها النزول إلى الأرض في تلك البقاع المستهدفة لغارات التوارج الكثيرة، وكان هناك السهل المرتفع ألفًا وثمانيمائة قدم عن شاطئ البحر ينخفض نحو الجنوب، وإذ قطعوا الطريق المؤدية من أغاد إلى مرزوق المهدة بأقدام الجمال بلغوا مساء إلى الدرجة السادسة عشرة من العرض والرابعة والنصف من الطول بعد أن يكونوا قد قطعوا مسافة مائة وثمانين ميلًا من أرض مستوية مملة.

ففي ذاك النهار أتم يوسف إعداد الطعام، آخر ما كان عنده من الصيد فأتى للعشاء بشيء من لحم دجاج أرضي مشوي مما يهيج شهية الآكل لجودته ولذته، أما الريح فكانت تصلح للسفر فعمد العلَّامة إلى أن يداوم السير في ليلٍ كان البدر فيه تميمًا ساطعًا، فارتفعت المنصورة إلى علو خمسمائة قدم فسارت ليلًا قاطعة مسافة نحو ستين ميلًا بهدوء وسكينة لا يقلق فيها طفل خفيف النوم.

أما في يوم الأحد صباحًا فقد انقلبت الريح فكانت تحمل المنصورة إلى ما بين الشمال والغرب، وكنت ترى بعض الغربان تطير في الهواء، وسربة من الشوح تطير بعيدة عنها بعدًا عظيمًا.

فلما نظر يوسف إلى هذه الطيور الكاسرة خطر له على بال أن يهنئ معلمه على ما رآه من الرأي المصيب في اتخاذ مركبتين هوائيتين؛ الواحدة ضمن الأخرى.

فقال: كيف ترى كان حالنا لو كنا في ملفٍ واحد؛ لعمري إن هذه المركبة الثانية هي بمنزلة قارب في البحر تقي الركب من الغرق عند انكسار السفينة.

أجابه معلمه: أصبت يا صاح!... غير أني لا أركن إلى قاربي كل الإركان؛ لأنه لا يساوي المركب.

قال ديك: وما معنى قولك هذا؟!

قال: معناه أن المنصورة الجديدة لا تسوى القديمة؛ إما لأن قماشها قد بُري وإما لأن صمغها قد ذاب على حرارة الأنبوبة؛ فإني تحققت تلفًا في

الغاز ليس بكثيرٍ إلى الآن، إنما معتبر، وقد أخذت القبة بالميل إلى الهبوط، وقد اضطررت إلى تثبيتها إلى أن أزيد الإدروجن تمددًا.

قال ديك: لا حول ولا قوة إلَّا بالله؛ فإني لا أرى علاجًا لهذا الخلل.

قال العلَّامة: في الحقيقة لا علاج لهذا الداء يا صاحبي ديك، ومن ثم يحسن بنا أن نسرع في المسير ونتحاشى من وقفات الليل.

قال يوسف: أنحن بعيدون عن الساحل حتى الآن؟

قال العلَّامة: أي ساحل يا ولدي؟!... وهل نعلم إلى أين تحملنا التقادير؟!... فكل ما يمكنني أن أقول لك هو أن تمبوكتو تبعد عنا مسافة أربعمائة ميل نحو الغرب.

قال: وكم من الزمان يلزمنا للوصول إليها؟

قال: إن ساعدتنا الريح وصلنا إلى تلك المدينة يوم الثلاثاء مساء.

فعندها أشار يوسف إلى سربة بهائم وأناس منسربة في الفيافي وقال: إذًا نصل إليها قبل هذه السرب.

ثم انحنى فرغوسن وديك ونظرا خليطا كبيرًا من كل نوع، فكان هناك أكثر من مائة وخمسين جملًا؛ يؤجر الواحد بمائة وخمسة وعشرين فرنكًا من تمبوكتو إلى تافيلة حاملًا قنطارًا على ظهره، وكل من الجمال تحت ذيله جراب يلقي فيه بعره لكي يشعلوه في البرية؛ إذ ليس للجمالة وقود خلافه في الفلوات.

أما جمال التوارج فهي من البابة الأولى، وتصبر على الظمأ من ثلاثة أيام إلى سبعة، وتسير يومين بدون أكل، وهي أسرع من الخيل عدوًا، وتطيع بحذاقة صوت الخبير الذي هو قائد القافلة، فتُعْرَف في البلاد باسم مهاري؛ فبينما كان العلَّامة فرغوسن يقص هذه القصص كان رفيقاه يحدقان بنظريهما إلى ذلك الجمهور الغفير من رجال ونساء وأولاد يسيرون بعناء على كثائب رملٍ رخو تغرق فيه أقدامهم، ولا يتخلله إلَّا قليل من العوسج والأخشاب الجافة والعليق النابت في بعض محاله، وكانت الريح تذرو الرمال وتمحو آثار خطواتهم حالًا بعد تخططها.

فسأل يوسف: كيف تتوصل العربان إلى معرفة الطرقات ويتمكنون من إيجاد الآبار المتفرقة في تلك الفلوات الفسيحة؟!

أجاب فرغوسن: إن العربان قد زينت الطبيعة عقولهم بذكاء غريزي يهديهم في سبيلهم، فالمحال التي يتوقف عن المسير فيها الأورباوي تحيرًا وارتباكًا تطوفها العربان بهدى وطمأنينة، فيتخذون لهم علائم في الطريق وتكفيهم إرشادًا في المسير، وتكون هذه العلائم أشياء طفيفة كحجر أو ضمة عشب أو اختلاف لون الرمل، وهلمَّ جرًّا.

وفي الليل يجعلون الكوكب القطبي دليلهم في الطرقات، فيقطعون مسافة أقل من ميلين في الساعة، ويستريحون في الهاجرة، فانظر الآن ما يلزمهم من الزمن لقطع الصحراء، وهي مفازة طولها أكثر من تسعمائة ميل.

أما المنصورة فقد كانت توارت عن أبصار العربان وقد أولتهم الدهشة من سرعة مسيرها وودُّوا لو ماثلوها جريًا؛ فعند المساء بلغت الدرجة الثانية وعشرين ثانية من الطول، وقطعت في الليل مسافة أكثر من درجة.

واليوم الاثنين قد انقلب الفلك انقلابًا تامًا؛ فأخذت الأمطار تنهمل وبلًا فزادت القبةَ والقاربَ ثقلًا أزعج السواح، وعن مثل هذه الأمطار الشديدة قد نشأت البحيرات ومستنقعات المياه المغشية سطح تلك البلاد، وفيها من النبات الشجرة الغناجة والبوبات والتمر الهندي.

فهذه حالة بلاد صُنراي وقراها المعممة بأسطحة مقلوبة تماثل القبعات الأرمنية؛ فقلَّ ما فيها من الجبال، إلَّا أنه توجد فيها تلال بينها غدران وبرك مياه تخطها طيور الدجاج الأرضي والغرغرة وهي طائرة على سطحها، وترى هنا وهنالك سيولًا سريعة الجري تقطع الطريق فيلتزم المسافرون أن يجوزوها متمسكين بحبل مركَّب من أفانين الأشجار القائمة على جانبي السيول وممدود من جهة إلى أخرى، وغابات مراتع للتماسيح والأوعال والخراطيط.

قال العلَّامة: أوشكنا أن نرى نهر النيجر؛ أي الأسود، فإن البلدان تتغير هيئتها بقرب الأنهار؛ لأن الأنهار طرقات جارية كما قيل، وجارَّة وراءها الخصب، وفيما بعد تأتي بالتمدن والفلاح؛ هكذا برز على جانبي مجرى النهر الأسود البالغ ألفين وخمسمائة ميل أكبرُ مدن إفريقية وأعظمُها أهمية وعمرانًا.

فأخذت يوسف حركة العجب وقال: إن هذا يذكرني بقصة من كان يتعجب من حسن العناية الإلهية ويثني عليها جميل الثناء لأنها اهتمت فأجرت الأنهار في وسط المدن الكبيرة أو بالقرب منها، مع أن الأنهار جرت مجراها قبل ابتناء المدن.

فكانت المنصورة في الظهيرة تسير فوق قرية غاو، وهي الآن مجموع

أكواخ حقيرة، مع أنها كانت في القديم مدينة معتبرة، بل قاعدة البلاد.

قال العلَّامة: هنا قد عبر برث النهر الأسود لدى عودته من تمبوكتو، وها هو ذا النهر الشهير في الأعصار القديمة بشهرة نهر النيل الذي أعزَى الحنفاء منشأه إلى الآلهة، وقد أشغل نظير نهر النيل أفكار الجغرافيين في كل زمان، وتكلف الباحثون عنه مشقات كبيرة، وتعرضوا لأخطار وفيرة كما تكلف الباحثون عن النيل.

وكان النهر الأسود يجري بين ضفتين منفرجتين، وتنحدر مياهه نحو الجنوب انحدارًا شديدًا أما السواح فكادوا لا يميزون عرجاته العجيبة.

قال فرغوسن: إني أريد أن أخاطبكم عن هذا النهر، ولو كان الآن بعيدًا منا جدًا؛ فإنه يجوب بلدانًا شتى ويسمى تارة نهر الدواليب، وتارةً أخرى نهر المايو، وطورًا نهر قُرّا، وفي بعض محال يدعى بأسماء أخرى وكاد يوازي النيل بطول مجراه، وكل هذه الأسماء معناها «النهر» في لغات البلدان التي يجتاز بها.

قال كنادي: لعلَّ المعلم برث سار هذا المسير.

قال فرغوسن: كلَّا؛ بل لما بارح بحيرة شاد مرَّ بأكبر مدن البرنو، وأتى فعبر النهر الأسود في صاي، وهي على مسافة أربع درجات تحت غاو، ثم ولج أواسط تلك البلدان التي لم يكن تجسسها أحد، وكان النهر يحدق بها بعوجاته، وبعدما قاسى أتعابًا جديدة مدة ثمانية أشهر وصل إلى تمبوكتو، أما نحن فإننا نبلغ إليها بأقل من ثلاثة أيام إن ساعدتنا الأرياح.

فقال يوسف: هل عرفت ينابيع النهر الأسود؟

أجابه العلَّامة: منذ زمنٍ مديد قد رغب رجال كثيرون في الاكتشاف على النهر الأسود والنهيرات الصابة فيه، ويمكنني أن أذكر لك أخصهم؛ فمن سنة 1749 إلى سنة 1758 عرف آدمسون النهر وبلاد غورا، ومن سنة 1785 إلى سنة 1788 جاب غولباري وجوفروا بلاد ستيغمبي وصعدا حتى بلاد المغاربة الذين قتلوا صونية وبريسون وآدم وريلاي وكوشله وكثيرين غيرهم ممن ساؤوا حظًا وهلكوا في تلك الأمصار، وأُلْحِقَ بهم مونغوبرك الشهير بخليل ولترسكوت وابن وطنه الاكوسي؛ فهذا بعثت به الشركة الإفريقية من لندرة سنة 1795 إلى تلك الأطراف فبلغ إلى بمبارا ونظر النهر الأسود وقطع مسافة خمسمائة ميل برفقة أحد تجار العبيد، وعرف نهر غمبيا وعاد إلى لندرة سنة 1797، ثم عاد فسافر في 30 ك 1 سنة 1805 برفقة صهره آندرسون وسكوت المصور وجماعة من الفعلة، فوصل إلى بلاد غورا؛ فهناك ضم إلى جماعته فرقة عددها 35 جنديًا، ورجع ينظر النهر الأسود في 30 آب غير أنه لم يبق في قيد الحياة من الأربعين أوربيًا إلّا أحد عشر نفرًا، والباقون قد هلكوا من جراء ما قاسوه من المشاق والرزايا وسوء الهواء وقلة الضروريات؛ ففي 16 ت2 بلغت آخر رسائل مونغوبرك إلى زوجته وعقب سنة أخبر أحد التجار من تلك الأطراف أنه لما وصل إلى مدينة بوصا الكائنة على النهر الأسود في 23 ك1 انقلب به القارب بميازيب النهر، ثم نجا من الغرق إلَّا أنه وقع بين أيدي سكان تلك البلاد فقتلوه.

قال ديك: ألم توقف مثل تلك الميتات التعيسة رود الرائدين الراغبين في اكتشافات جديدة؟!

قال العلَّامة: كلَّا؛ بل أضحت لهم مهمازًا حضهم، ليس على البحث عن

النهر فقط بل على طلب أوراق المقتول أيضًا، ومن ثَمّ أعدُّوا في لندرة سنة 1816 رسلًا لتلك البلاد وكان من جملتهم الضابط غراي فوصل الرسل إلى سنغال ودخلوها في فوتادجالون، وزاروا شعوب فولا ومندينك ثم أخذوا بالعود إلى إنكلترة بدون نتيجة أخرى، وسنة 1822 تجسس الضابط لينك كامل أمصار إفريقية الغربية المجاورة أملاك الإنكليز وهو أول من وصل إلى ينابيع النهر الأسود؛ فبناء على تقريراته ليس لمنبع هذا النهر الكبير إلّا عرض قدمين.

قال يوسف: وما أيسر قفزه!

قال العلَّامة: مهلًا يا صاح!... إن صدقت التقليدات فإن كل من حاول مجاز ذاك الينبوع قافزًا ابتلعته المياه في الحال، ومن رام أن يستقي منه ماء منعته عن الاستقاء يد غير منظورة.

قال يوسف: هل يحرَّم علينا عدم الاعتقاد بكلمة من مثل تلك التقليدات؟

قال العلَّامة: ليس بحرام قط؛ أما الضابط لينك فقطع سنة 1827 فسيح الصحراء، ودخل تمبوكتو ومات مخنوقًا من أولاد سليمان الملحين عليه بالإسلام دون نيل إربهم، ولما قتل لم يبعد عن تمبوكتو إلَّا مسافة بعض أميال.

قال الصياد: ويلاه!... هاك ضحية أخرى ضحوها.

قال العلَّامة: فحينئذٍ قام واحد من صناديد الشبان وعمد إلى إتمام ما كان أعجب وأهول الأسفار الحديثة مع قلة ما كان له من الوسائط والمال لنفقات السفر وهو الفرنسي راني كاليه؛ فبعدما حاول مرارًا مباشرة

هذا السفر سنة 1819 وسنة 1824 أعاده في 19 نيسان سنة 1827 من ريونونياس، وفي 3 آب وصل إلى تيمة مضنوكا منهوكًا من التعب والمرض حتى إنه لم يعاود السفر إلَّا في كانون الأول سنة 1828، أي بعدما شرع فيه بستة أشهر، فانضم حينئذٍ إلى قَفَلٍ لابسًا ثيابًا شرقية تقيه عن أخطار الهلكة، فبلغ النهر الأسود في 10 آذار ودخل مدينة جنة وركب النهر حتى تمبوكتو، فوصل إليها ونزل فيها في 30 نيسان، وربما كان قد شاهد تلك المدينة العجيبة فرنسي آخر يقال له إيمبر سنة 1670، وإنكليزي يسمى ووبرث آدم سنة 1810، غير أن راني كاليه يعد أوَّل أوربي أتى بأخبار يقينةٍ عنها؛ ففي 4 أيار بارح تلك المدينة سلطانة البرية، وفي 9 منه عرف المحل نفسه الذي فيه قتل الضابط لينك، وفي 19 وصل إلى الهروان وبارح تلك المدينة العامرة بالتجارة وجاز تلك الفيافي الرحيبة الواقعة بين بلاد السودان وأمصار إفريقية الشمالية مقتحمًا فيها أخطارًا شتى؛ أخيرًا بلغ إلى تنجر، وفي 28 أيلول سافر إلى تولون.

والحاصل أنه في مدة تسعة عشر شهرًا جاب إفريقية من غربيها إلى شماليها مع ما قاساه من المرض مدة مائة وثمانين يومًا، ولعمري لو كان كاليه قد ولد في إنكلترة لكافؤوه بما يستحق من الإكرام والشرف كما كافأ الإنكليز ابن وطنهم منغوبرك، لكنه لم يعتبر في فرنسا الاعتبار الذي حقَّ له.

قال ديك: نعم الرجل، وحبذا لو كان رفيقًا لنا، ولكن ترى ما ذا حلَّ به؟

قال العلَّامة: إنه توفي وهو في عمر ثمان وثلاثين سنة من جراء

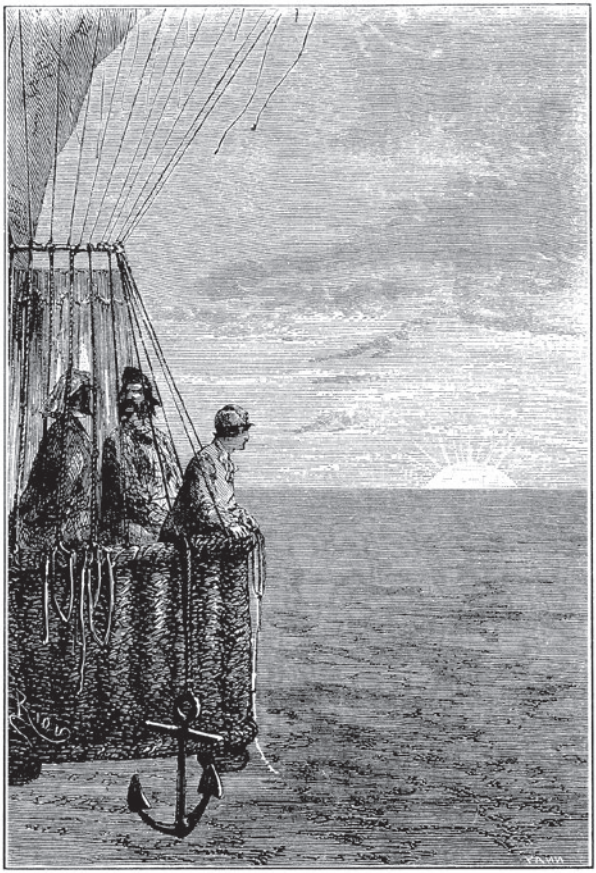
ما قاساه من الأتعاب، فظن الفرنسيس أنهم وفوه حق الكرامة بمنحهم إياه جائزة الشركة الجغرافية سنة 1828؛ فلو كان في إنكلترة لكان أتحف بجزيل الإكرام وسامي الإجلال ونال حسن السمعة؛ فبينما كان مباشرًا هذا السفر العجيب عمد أحد الإنكليز إلى هذا العمل نفسه وأقدم عليه نظيره ببسالة ولكنه لم ينجح نظيره، وكان القبطان كلابرتون رفيق دنهام فتوصل سنة 1829 إلى إفريقية من الجهة الغربية في خليج بانين، وأخذ يسير على آثار مونغوبرك ولينك، ووجد في بوصة الإفادات المتعلّقة بوفاة أولهما، ووصل آب إلى سكاتو، وهناك قبض عليه وحجز أسيرًا وقضى نحبه بين يدي خادمه الأمين ريشار لاندر.

فسأل يوسف: ماذا جرى للاندر؛ ماذا كان يريد؟!

قال العلَّامة: قد تيسر له الإتيان إلى الساحل ومن هناك عاد إلى لندرة ومعه أوراق القبطان وتقرير مدقق عن سفره الخصوصي، فعرض حينئذٍ خدامته للدولة في إتمام اكتشاف النهر الأسود فسافر وأخذ معه أخاه جون، وهو ثاني ولد لعائلة فقيرة من بلد كورنوايل، فسافر كلاهما في النهر فقطعاه من بوصة حتى مصبه، وحررا طوله ميلًا فميلًا، واطلعا على أريافه قرية فقرية، وبقيا في هذا السفر من سنة 1829 إلى سنة 1831.

قال ديك: فالمفهوم إذًا من قولك أن هذين الأخوين نجوا من الهلكة وعادا إلى أوطانهما سالمين خلافًا لما أصاب عموم المسافرين إلى تلك الجهات.

قال العلَّامة: نعم توفقا في هذا السفر، غير أن ريشار قد سافر مرة ثالثة إلى النهر الأسود سنة 1833، ولما وصل إلى قرب مصب النهر هلك بطلقة بندقية لم يعرف مطلقها؛ أفرأيتما إذًا يا خليليَّ أن البلاد التي نجتاز بها قد شاهدت من تسامَوا بسالة ونشاطًا حتى كانت المنية؛ فوا حسرتاه على الغالب جزاء هممهم الخطيرة ومروءتهم الكبيرة!



الفصل السابع والثلاثون

في البلاد التي في عرجات النهر الأسود وفي منظر جبال أومبري الغريب
وفي كابرة وتمبوكتو ورسم المعلم برث وسقوط المدينة عن رونقها
القديم والسير على رحمة الهواء

وكان العلَّامة فرغوسن مدة ذاك النهار المكرب، نهار الاثنين، يسلي رفيقيه بقصه عليهم قصصًا شتى عن البلاد التي كانوا يجتازون بها، وكانت أرضها مستوية على الأكثر لم تأتهم بصعوبة في مسيرهم، ولم يكن شيء يكدر صفا بال المعلم إلّا تلك الريح المشؤومة التي كانت تهب عاصفة من الشمال الشرقي وتبعدهم عن عرض تمبوكتو.

أما النهر الأسود فيجري شمالًا حتى يصل تلك المدينة ثم يدور كأنه فوار ماء كبير ويصب في البحر الأطلنتيك متفرقًا خصالًا منفرجة جدًا؛ أما الأراضي التي يكتنفها النهر في عرجاته فمنها عامرة بهية بالخصب، ومنها غامرة قاحلة كل القحول؛ فتلي السهول البائرة حقولًا رحبة يكسوها ديباج المزروعات أو بساط الرتم. وفي أرياف السئول والبطاح والبحيرات تعيش بكثرة جميع أنواع الطيور العاشقة المياه كالبجع والأوَزِّ والبط والصنصن وما شاكلها.

ويرى كل مدة محطة من محطات التوارج المضطجعين تحت مظال من أديم فيما تتفرغ نساؤهم للأشغال الخارجة ويحلبن نوقهن ويشربن دخان التبغ بغلايين كبيرة المواقد.

أما المنصورة فكانت نحو الساعة الثامنة مساء قد تقدمت مسافة ما ينيف عن مائتي ميل نحو الغرب، فشاهد حينئذٍ السواح مشهدًا جميلًا أوعب قلوبهم عجبًا وابتهاجًا.

وهو أن بعض أشعة من القمر نفذت من خلال الغيوم وانبلجت بين أهاليل السحب وسطعت على جبال همبري فجاءت عليها بمنظر ثياب بيضاء كالثلج لم ير كمنظره في مفاعيل النور، ثم تألفت في الفضاء القاتم بهيئة أشباح كأنها أطلال مدينة كبيرة دارسة من بناء العصر المتوسط، كما تظهر في الليالي الداجية أكداس الجمد في البحور المجلدة.

قال العلَّامة: ها هو ذا منظر من مناظر أسرار أودلف، لعمري إن المصور رد كليف لم يقدر أن يصور هذه الجبال بمنظر أغرب وأهول من المنظر الذي نعاينه الآن.

أجابه يوسف: وحياتي إني لا أحب أن أسير وحدي مساء في هذه البلاد الموعبة أطيافًا وأشباحًا؛ أترى يا معلمي لو لم تكن هذه البقعة ثقيلة لحملتها إلى بلدي ولأقمتها على شاطئ بحيرة لموند فيتقاطر إليها الناقشون والمتفرجون أجواقًا أجواقًا.

قال العلَّامة: إن قبتنا لا تسعها حتى تشغل بالك بهذا الفكر الشاذ، غير أنني أرى اتجاه مسيرنا قد انقلب فلا عاد عفاريت هذا المكان يعارضوننا،

بل إنهم ينفخون لنا ريحًا لطيفة تهب من الجنوب الشرقي فتحملنا إلى طريق حسنة.

في الحقيقة عادت المنصورة تسير في طريقٍ تميل إلى الشمال، وفي اليوم العشرين صباحًا مرت فوق جديلة أقنيةٍ ونهيراتٍ وغدران تصب جميعها في الأنهار الصابة في النهر الأسود، وكثير من هذه الأقنية مغشاة بأعشاب كثيفة كأنها مراعٍ دسمة؛ فهناك اهتدى العلَّامة إلى الطريق التي سار فيها برث حينما سافر في النهر قاصدًا تمبوكتو؛ وعرض النهر 4800 قدم وعلى ضفتيه كثير من شجر الصبار والتمر الهندي، فيرتع به سرب الأيل وتتلبك قُزونها المحلقة بين الكلأ فيرصدها التمساح ليثب عليها ويفترسها.

وكنت ترى أقفالًا كثيرة من حمير وجمال تنسرب تحت الأشجار الجميلة مُحَمَّلة ببضائع واردة من جنة، وبعد هنيهة ظهر على عوجة من عوجات النهر جوقة بيوت منخفضة مبنية في منحدرٍ وعلى أسطحتها كدسان علف للدواب أُتي به من الأراضي المجاورة.

فلما نظرها العلَّامة أخذته حركة الابتهاج فهتف قائلًا: هذه «كبرى»، وهي مرفأ تمبوكتو؛ فلم تعد المدينة بعيدة عنا أكثر من خمسة أميال.

قال يوسف: فطبت إذًا نفسًا يا سيدي!

قال العلَّامة: قد انشرح صدري يا ولدي وابتهج فؤادي.

قال يوسف: الحمد لله على توفيقه.

وها هي ذي تمبوكتو سلطانة البرية، مدينة الخفايا والغرائب التي حازت كأثينا وروما بمدارس العلماء والفصحاء والفلاسفة قد أخذت تنجلي شيئًا فشيئًا لأبصار السواح.

وكان فرغوسن يتأمل الرسم الذي اتخذه برث نفسه في سفره، وحقق غاية صحته وحقيقته.

فرسم المدينة على هيئة مثلث الزوايا؛ فهي منبسطة على سهل رحيب من رمل أبيض، ورأسها المتجه نحو الشمال نافذ في جهة من الصحراء وكاد لا يكون شيء من الأغراس في دوائرها إلَّا بعض أشجار ذات زهر ونبات الغناجة وغيرها من نباتات مهذولة صغيرة.

أما منظر تمبوكتو فهو كمجموع كرَّات وكعبات تظهر بديعًا لعين الناظر؛ فشوارعها ضيقة وعلى جانبيها بيوت ليس لها إلَّا طبقة سفلية مبنية بآجُر ميبس على الشمس، وبعض أكواخ من قش وقصب؛ منها بشكل مخروط ومنها مربعة، وعلى الأسطحة ترى بعضًا من سكانها مضطجعين اضطجاع المرطلين الكسالى مترديين بكساء بهي ثمين وبأيديهم القناة أو القربينة. أما النساء فلا يُنْظَرْن في تلك الساعة من النهار؛ قيل إن النساء جميلات المنظر.

قال العلَّامة: لم يبق آثار من المدينة القديمة سوى ثلاث مآذن لثلاثة جوامع؛ لأن المدينة قد سقطت كثيرًا عن رونقها السالف ففي الرأس المثلث الزوايا ترى جامع سنكور وإيوانه الطويل المسنود على قناطر ليست بخاليةٍ من جمال البناء ونظامه، وعلى مسافة منها بالقرب من حي سانغونغو جامع سيدي يحيى، وبعض من الدور على طبقتين؛ فعبثًا

تفتش في المدينة عن قصور وبنايات كبيرة، فشيخها تاجر بسيط ومنزله الملوكي ما هو إلَّا مكتبه التجاري.

قال ديك: كأني أرى أسوارًا مهدومة من باب النصف.

أجابه العلَّامة: نعم؛ قد دكها الفولانيون سنة 1826، وكانت المدينة وقتئذٍ أكبر مما هي الآن من باب الثلث؛ لأن تمبوكتو كانت منذ القرن الحادي عشر هدفًا لسهام مطامع شعوب كثيرة ففتحها التوارج والصنراويون والمغاربة والفولانيون، وكانت مركزًا كبيرًا للتمدن والفلاح، وكان فيها للعلَّامة أحمد بَابَا في القرن السادس عشر مكتبة تحوي ألفًا وستمائة كتاب بخط اليد، أما الآن فليست سوى مخزن تجارة إفريقية الداخلية؛ يدل ظاهر حالها على أنها أُسلمت لرحمة المتوانين وأصيبت بداء التهاون الآتي منه زوال المدن واضمحلالها، وتكدّس فيها الردم حتى لا يرى على سطح أرضها المستوية محال مرتفعة إلَّا تلك التي ركم فيها ذلك الردم الفاضح.

فلما مرت المنصورة فوقها بدا فيها بعض الحركة، بل وضرب بالطبل، غير أن من كان من أهلها على شيء من العلم لم تسنح له الفرصة المناسبة لمراقبة هذه الحادثة الجديدة؛ إذ دفعت الريح الشديدة السوَّاح نحو المفازة فعادوا يسيرون فوق مجرى النهر الكثير العرجات، ففي الحال توارت عنهم تمبوكتو ولم يبق لهم منها إلَّا ذكرها.

قال العلَّامة: أما الآن فليذهب بنا المولى إلى حيث يشاء.

أجاب ديك: اللهم بشرط أن يسير بنا نحو الغرب.

قال يوسف: لو عدنا إلى زنجبار في الطريق التي أتينا بها أو جزنا بحر الأوقيانوس حتى أمريكا لما كنت أخشى ضرًا.

قال العلَّامة: ولكن يا يوسف لكان يلزمنا أولًا أن نستطيع سبيلًا إلى ذلك السفر.

قال يوسف: ترى ما الذي يعوزنا لمباشرته؟

قال العلَّامة: يا ولدي يعوزنا الغاز لأن قوَّة التصاعد في القبة أخذت تنخفض شيئًا فشيئًا فيلزمنا أخذ احتياطات كبيرة لكي تحملنا إلى الساحل فأوشكت أن أضطر إلى أن أطرح شيئًا من الصبورة لأننا ثقال ثقلًا زائدًا.

قال يوسف: هاك يا معلمي ثمرة البطالة والمكث في النهار بطوله كمن يضَّجع في أرجوحته فنسمن ونضخم ونثقل؛ فإن سفرنا هذا من أعمال الكسالى فمتى عدنا إلى إنكلترة أرعبنا من نظرنا بسمننا وضخامتنا.

أجاب الصياد: لعمري إن مثل هذه الملاحظات لا يأتي بها إلّا يوسف، ولكن مهلًا يا يوسف مهلًا، انتظر النهاية؛ أتعلم ماذا يقدره الله علينا؛ لم نزل بعد بعيدين من منتهى سفرنا، ما رأيك يا صموئيل؛ أين نصادف ساحل إفريقية؟

قال العلَّامة: إنني قاصر جدًا عن مجاوبتك يا ديك لأننا مسلمون إلى رحمة رياح متقلبة غير أني أحسب نفسي سعيدًا إذا وصلت إلى ما بين سيارة ليوني وبورتنديك؛ فهناك بلدان واسعة لابد أن نصادف فيها بعضًا من الأصدقاء.

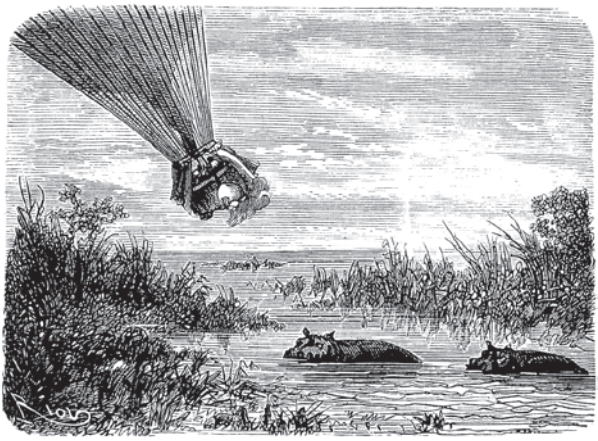
قال ديك: وما أوفر سرورنا عندما نقابلهم ونهديهم التحيات الودادية ولكن هل ترى أننا سائرون إلى الجهة المطلوبة؟

قال العلَّامة: لسنا تمامًا على ما ينبغي من المسير؛ هاك البوصلة فترانا سائرين إلى الجنوب وذاهبين إلى ينابيع النهر الأسود.

قال يوسف: لكانت هذه فرصة جميلة لاكتشافها لو كانت لم تزل مجهولة؛ ألا سبيل لنا أن نكتشف لها ينابيع أخرى؟

قال العلَّامة:كلَّا، ولكن كن مرتاح البال يا يوسف؛ إني أؤمل ألَّا نتقدم إلى ذلك الحد.

فلما أظلم الظلام رمى العلَّامة بما بقي من أكياس الصبورة لأن القبة لم تعد تحتملها مع اشتعال آلة الغاز إلى أعلى درجة، فكانت القبة وقتئذٍ سارت ستين ميلًا في جنوب تمبوكتو، وفي اليوم الثاني أصبحت على شاطئ النهر الأسود بالقرب من بحيرة ديبو.



الفصل الثامن والثلاثون

في قلق العلَّامة فرغوسن وفي الجراد وفي انقلاب الريح

فكان مجرى النهر وقتئذٍ منقسمًا إلى فروع ضيقة سريعة الجري لوجود جزائر شتى في وسطه، وكانت إحداها تحوي بعض أكواخ للرعاة إلا أنه لم يكن يتيسر للسواح رسم ما كان على طريقهم بوجه الضبط والتدقيق لازدياد سرعة مسير المنصورة، ولسوء حظهم قد كانت مائلة للجنوب أكثر من ذي قبل، وجازت بحيرة دابو ببرهة وجيزة.

أما فرغوسن فكان ينقل القبة إلى درجات مختلفة من العلو ليحكمها في مجاري أرياح غير التي كانت تحملها إلا أنه لم ينجح في عمليته، ومن ثَمّ ترك حالًا هذه المحاولة الزائد من قبلها تلف الغاز بداعي شده على جوانبها المنهوكة بالأرياح، فاستولى عليه قلق جسيم لكنه وارى أماراته صامتًا، وكانت الريح تلازم دفعها إلى جهات جنوبي إفريقية وتوقع خللًا في حساباته، أما هو فلم يعد يدري بمن أو بما يعتمد عليه؛ فإن لم يبلغ الأراضي الإنكليزية أو الإفرنسية وقع في أيدي البرابرة الشانين الإغارة على

سواح غويني، والله أعلم بما يصيبه هنالك من البلايا والرزايا؛ فلا يعود يتيسر له سفينة يعود بها إلى إنكلترة وكانت الريح تقذف به نحو مملكة داهوماي في وسط قبائل فاقت جميع الملأ توحشًا وفظاظة فيترك هناك إلى رحمة ملك يذبح في الأعياد الجمهورية ألوفًا من البشر ضحايا لآلهته؛ فمن وقع في تلك البلاد ذهب لا محالة فريسة الهلاك.

وكانت القبة من جهةٍ أخرى تعيا عياء ظاهرًا في مسيرها، ولم يخف أمرها على العلَّامة لكنه كان يؤمل أنه متى انقشع السحاب وانقطع المطر تنقلب مجاري الهواء في الجو إلى ما يحسن جريها فساءه إذًا ما أنبأه به يوسف عن حالة الفلك بقوله: ها هو ذا المطر؛ أوشك أن يتضاعف هطله، ويكون هذه المرة طوفانًا عرمرما على ما تبشر به هذه السحب المقبلة.

قال فرغوسن: لا حول ولا قوة إلّا بالله؛ أَسُحُبٌ هي حقًا، وما حاجتنا إليها؟! فقال ديك: لعمري إنها سحب كثيفة!

قال يوسف: وحياتي لم تر مثلها قط، ولها أطراف حادة كأنها مخططة على الزيح!

ثم أخذ العلَّامة النظارة ونظر إليها، وإذ رفع النظارة قال: قد اطمأن قلبي لأنها ليست بسحب.

قال يوسف: لله العجب؛ أليس هذا بسحاب؟!

قال العلَّامة: هذا ليس بسحاب، بل ضباب.

قال يوسف: ما فرق الضباب عن السحاب؟

قال العلَّامة: إنما ضباب من جراد.

قال يوسف وقد أخذته هزة العجب: أهذا جراد؟!

قال العلَّامة: إن مليونات بمليونات من الجراد أوشكت أن تمر بهذه البلاد؛ فالويل لها إن غطت عليها؛ لقد جعلتها إذن فريسة الدمار.

قال يوسف: إني لراغب أن أرى مثل ذلك.

قال العلَّامة: مهلًا يا يوسف؛ فمن الآن إلى عشر دقائق يدركنا هذا الضباب فتراه بعينيك. وقد أصاب العلَّامة فرغوسن بقوله هذا، لأن سحابة هذا الجراد الكثيفة المنتشرة إلى مسافة أميال كثيرة وصلت سريعًا إلى السواح وهي تدوي دويًا يصمم الآذان وتلقي على الأرض ظلها الطويل؛ فكانت جيوشًا لا يحصى عددها من جراد ذي أربعة أجنحة؛ فعلى مسافة مائة قدم من المنصورة انصبت على بلدةٍ مخضرة فما مضى ربع ساعة من الزمان إلَّا وسحابة الجراد عادت تطير فنظر السواح عن أمَدٍ الأشجارَ والآجامَ مجردة من كل خضراء وتمراء، والحقول معراة، وقد أمست المروج لا عشب لها؛ فكأن فصل الشتاء قد فاجأ تلك البقعة فغرقها في أقصى المحل والجذب.

ثم قال: أرأيت يا يوسف ما كان من هذا الجراد؟!

قال يوسف: إن ذا غريب، لكنه طبيعي فكما أن جرادة واحدة تتلف يسيرًا فكذلك ربوات من الجراد تتلف كثيرًا.

قال ديك: وإنه لمطر وابل، بل مهول، وأهول من البرد الشديد دمارًا.

قال العلَّامة: وأهول من هذا جميعه محال التوقي منه؛ أحيانًا يرى الأهلون حرق الغابات حتى والمزروعات لكي يتمكنوا من إهلاك هذه الهوام ولكن لم ينجحوا كثيرًا بهذه الطريقة لأن الرفوف الأولى تنقض على اللهيب فتغشيه وتطفئه، أما الباقية منها فيمررن فوقها بغير صعوبة ولا معارضة غير أن الأهلين يستفيدون من هذا المصاب بعض العوض عما ينالهم من الرزايا، وهو أنهم يلتقطون كثيرًا من هذه الهوام ويأكلونها فيستعذبونها مأكلًا.

قال يوسف: إني أشبهه بالقريدس الذي في البحر، وأتأسف لعدم تمكني من ذوقه لأعلم كيفية هذا الطعام.

وكانوا يرون البلاد عند المساء تزداد سباخًا فلم يعودوا ينظرون غابات بل بعض شِعْبٍ من الشجر، وعلى ضفتي النهر بعض نبات من التبغ ومروجًا ذات عشب كثيف لرعاية المواشي؛ ففي وسط جزيرة كبيرة لمحوا مدينة جنة ومئذنتي جامعيها، واشتموا الرائحة الكريهة المنبعثة من ألوف بألوف من أوكار السنونو المتحشرة في أسوارها وفي خلال بيوتها، ونظروا رؤوس أشجار البوبات والغناجة والنخيل، أما أهلها فإنهم ذوو عزم وهمة ونشاط لا يزالون النهار والليل في العمل، ومدينتهم جنة وسيعة الدائرة وكبيرة الحركة التجارية فتأتي تمبوكتو بكل ما يلزمها وتنقل إليها على القوارب بالنهر وعلى ظهور الجمال في الطرقات المظللة بالأشجار جميع محصولات صنائعها.

قال العلَّامة: فلولا الحذر من إطالة سفرنا لحاولت النزول في هذه المدينة؛ فلا بد من أن يوجد فيها من العربان من سافروا إلى فرنسا وإنكلترة

فلعلهم لا يستغربون مركبتنا، إنما هذا لا يخلو من خطر.

قال يوسف وهو يتبسم: فلنأجلن هذه الزيارة إلى سياحتنا القادمة.

قال العلَّامة: وزد على الخطر... إني أشعر بميلة خفيفة للريح ليهب من الشرق فمن الواجب أن نغتنم هذه الفرصة.

فرمى العلَّامة من المنصورة ببعض أشياء أمست غير مفيدة كبعض قناني فارغة وصندوقًا يوضع فيه لحم لم تعد حاجة إليه، وتوصل إلى أنه أقام المنصورة في منطقة أنسب للمسير إلى حيث يشاء؛ ففي الساعة الرابعة صباحًا كانت أشعة الشمس تضيء سغو، وهي عاصمة بمبارا المعروفة جيدًا بالأربع المدن التي تتألف منها وبجوامعها المزخرفة وبتوارد القوائق الناقلة بلا انقطاع سكان المدينة من محل إلى آخر، أما السوَّاح فلم ينظروا أكثر مما نظروا فكانوا يفرون بسرعة وعلى الخط المستقيم إلى الجهة الشمالية الغربية، فأخذ العلَّامة يطمئن قليلًا قليلًا من قلقه وبلباله فقال: إن بقينا نسير إلى هذه الجهة وبهذه السرعة وصلنا بعد يومين إلى نهر سنغال.

فسأله الصياد: هل نكون في بلاد أمينة؟

قال العلَّامة: ليست أمينة بالتمام، إنما إذا نقصتنا المنصورة نستطيع بالحصر أن نصل إلى منازل فرنسوية وإن سارت بعد مسافة بعض مئات من الأميال فإننا نصل آمنين من الأتعاب والمخاوف والأخطار إلى الساحل الغربي.

قال يوسف: أنكون انتهينا من السفر؟... حاشا لنا؛ فلولا رغبتي في أن

أقص قصة سفري ما شئت قط أن ألقي قدميَّ على الثراء؛ هل ترى يا معلمي يصدق الناس قصصنا؟

أجابه العلَّامة: ما أدراك يا صاحبي إن كانوا يصدقونها؟ لكنها لا تزال صادقة أكيدة إن صدقوها أم لا، فيكون عندنا ألف من شهود عيان يشهدون بسفرنا من ساحل إفريقية الشرقي، وألف يروننا واصلين إلى الساحل الغربي.

قال ديك: والحالة هذه فإني أرى أمرًا عسرًا قولَ قائلٍ بأننا لم نجز إفريقية من أقصاها إلى أقصاها.

قال يوسف، وهو يتنهد الصُّعَدَاء: آه؛ إني متأسف شديد الأسف على قطع ذاك الذهب الخالص؛ فلو حفظناها لزادت كلامنا اعتبارًا وقصصنا تصديقًا، ولكنت إذا أعطيت كل رجلٍ شيئًا من ذاك الذهب؛ ألفت جمهورًا كبيرًا من أناسٍ يسمعون حكاياتي ويتعجبون لخطبي ويستعظمونني.

الفصل التاسع والثلاثون

في دنو السواح من سنغال وفي ازدياد المنصورة انخفاضًا وفي الدرويش الحجي وبسكال ومنصور ولمبرتوس والجبال الشاهقة وسلاح ديك ولباقة يوسف والوقفة فوق غاب



ففي اليوم السابع والعشرين من أيار نحو الساعة التاسعة صباحًا ظهر منظر البلاد جديدًا فولى الدرجات المنبسطة تلال وأوتاد بشرت بقرب الجبال والآكام، وأزمع السواح أن يقطعوا سلسلة الجبال الفاصلة بين مسيل النهر الأسود ومسيل نهر سنغال المؤديين المياه إلى خليج غويني أو إلى جون الرأس الأخضر.

فإن قسم إفريقية هذا حتى سنغال مشهور بتوحش أهله وإيذائهم للسواح، وكان العلَّامة فرغوسن يعرف ذلك من أخبار سلفائه الذين قاسوا مر العذاب وخاضوا أشد الأخطار ما بين أولئك السودان البرابرة وقد هلك رفقاء مونغوبرك من تأثير سوء الهواء وشدة الحر في تلك الأطراف فجزم فرغوسن جزمًا قطعيًا بألّا يدوس تلك الكورة التي لا تأتي ضيفها إلّا بالأهوال والأخطار.

غير أنهُ لم يرتح له بال ولم يهدأ له بلبال لكون المنصورة لم تزل تنخفض انخفاضًا ظاهرًا فاقتضى أن يخفف حملها بطرحه منها أشياء جمة غير لازمة أو غير مفيدة، ولا سيّما عندما أوشكت أن تمر فوق قمة من قمم الجبال، ولم تبرح على هذه الحال من العناء ومن الصعود والنزول على مسافة أكثر من مائة وعشرين ميلًا وهي مجندلة تتدحرج دوامًا كصخر سيزيف[1]. ولما كانت القبة الهوائية قليلة الانتفاخ؛ قد ارتخت جوانبها، فكانت تمتد طولًا وتضيق عرضًا وأخذت الريح تجعل في ملفها طيات وسيعة.

قال ديك وقد لحظ ما جرى لها: لعل في القبة شقًا من جهة؟!

أجابه العلَّامة: كلا، بل إن طليها قد ذاب لشدة الحرارة وأخذ الإدروجن ينصرف من خلال قماشها.

قال ديك: وما الحيلة في منع انصراف الإدروجن؟

قال العلَّامة: لا حيلة في ذلك إلّا أن نخفف حملها، وهذه هي الطريقة الوحيدة؛ فلنلق منها كل ما يمكن طرحه!

قال ديك وهو ينظر إلى قارب القبة: ترى ما الذي نطرحه بعدُ؟!... ها!... القارب فارغ من كل ما كان فيه.

قال العلَّامة: فلننزع عنها المظلة لأن ثقلها ليس بيسير.

(1) زعم الوثنيون القدماء أنه كان محكوما على سيزيف أن يصعد من أسفل جبلٍ إلى قمته صخرًا ويتدحرج به حالًا من القمة إلى أسفل.

ولما كان يوسف ينوط به هذا الأمر صعد فوق الحلقة الجامعة حبال الشبكة وتيسر له هناك أن فصل عنها أستار المظلة السميكة ورمى بها خارجًا وهو يقول: هاك غنيمة وسعادة لشمل قبيلةٍ من السودان؛ فهذه الأقمشة تكفي لكسوة ألفٍ من الأهلين لأنهم يشحون كثيرًا على القماش في ملابسهم.

فارتفعت القبة برهة إلّا أنها عادت فيما بعد تهبط وتدنو من الأرض.

قال ديك: فَلْنَنْزِلَنَّ وَلْنَرَ ما يمكننا عمله لإصلاح هذا الملف!

قال العلَّامة: قد قلت لك يا ديك، وأقول أيضًا، أن لا سبيل لإصلاحه.

قال ديك: فما الحيلة إذًا؟!

قال العلَّامة: الحيلة أن نضحي كل ما يمكننا أن نستغني عنه من الأمتعة؛ فإنني أريد بلابدٍّ أن أتحاشى من الوقفة في هذه الجهات، لأن الغابات التي نحن الآن فوق رؤوسها غير مأمونة وموعبة أخطار الهلكة.

قال يوسف: وما أخطارها؟... لعلَّ فيها أسدًا أو ضباعًا، فلا يعبأ بهما.

قال العلَّامة: إن فيها يا ولدي ما كان شرًا من الأسد والضباع؛ أعني به أناسًا برابرة وأسوأ سكان إفريقية قساوةً وتوحشًا.

قال يوسف: ومن أين علمنا ذلك؟!

قال العلَّامة: قد أخبرنا عنهم السواح الذين سلفونا في هذا القطر، ثم الإفرنسيون سكان مستعمرة سنغال؛ إذ لم يكن لهم بدٌّ من المعاطاة مع

القبائل المجاورة على عهد الكولونيل «فيدرب» فوقفوا على اكتشافات قاصية بالبلاد فطافها بعض الضباط منهم أي بسكال ومنصور ولمبرتوس، وأَتَوْنا بإفادات نفيسة عن أسفارهم؛ فإنهم تجسسوا تلك الكور الواقفة في تعريجة نهر سنغال ولم تدعها الحرب والنهب إلَّا قاعًا صفصًا.

قال يوسف: وماذا جرى فيها؟

قال العلَّامة: هاك ما جرى؛ ظهر سنة 1854 شيخ سنغالي من فوطا يقال له الحجي وادعى النبوة وألقى الفتنة بين القبائل وحملهم على محاربة الكفار، أي الأوربيين، وأنزل ويلات الدمار والخراب فيما بين نهر سنغال ونهر فليمة الصَّابِّ فيه، فأقام ثلاث عصابات من أولئك القوم الرفاض وطاف بهم البلاد ينهب ويقتل كل من صادفه، ولم يعف عن قرية ولم يسلم من شره دار ولا كوخ حتى ولج في وادي النهر الأسود وبلغ مدينة سغو وتهددها زمانًا طويلًا بالخراب، وسنة 1857 عاد إلى جهات الشمال برجاله وأحاط بقلعة مدين التي بناها الإفرنسيون على شاطئ النهر، فدافع عن هذه القلعة رجل صنديد يقال له بولس هول عدة أشهرٍ، ولبث ثابتًا يحميها من شر الحجي ورجاله، وبالكاد عنده قليل من القوت حتى وصل إليه الكولونيل «فيدرب» ونجده وأنقذه من الهلكة، فعندها رجع الحجي وجماعته عنه وجازوا سنغال وعادوا إلى كعرتا ينهبون البلاد ويقتلون العباد، والحاصل أن هذه هي البلاد التي لجأ إليها هو وجماعته واحتجبوا فيها، ومن الثابت أنه لا يحسن بنا أصلًا الوقوع بين أيديهم.

قال يوسف: لا سمح الله أن نقع بين أيديهم، ولو اقْتُضِي أن نخلع عنا

أحذيتنا ونرمي بها إلى الثرى لنرفع المنصورة في الفضاء.

قال العلَّامة: لم نبعد عن النهر لكنني أرى أن القبة لا يمكنها حملنا إلى ما وراءه.

أجاب الصياد: فَلَنَصِلَنَّ إلى شاطئه وحسبنا توفيقًا في المسير!

قال العلَّامة: هذا ما نحاول صنيعه، غير أنه يقلقني أمر واحد.

قال الصياد: وما هو؟

قال العلَّامة: إن أمامنا جبالًا ينبغي أن نقطعها ويشق علينا قطعها، لأنني لا أقدر أن أزيد قوة التصاعد في القبة، ولو أتيتها بأعظم ما يمكن من الحرارة.

قال الصياد: فصبرًا جميلًا؛ علينا بالانتظار لنرى ما يكون في آنه.

قال يوسف وهو يتأسف على حالة المنصورة: مسكينة المنصورة؛ إنني تعلّقت بها تعلّق النوتي بسفينته؛ فلا أنفصل عنها بدون ضيم وكدر، ولكن ما الحيلة؛ فإنها ليست كما كانت في أول سفرنا فلا بأس عليها ولا ينبغي أن نقول فيها سوءا لأنها أتتنا بخدمات سنية، وإن هجرتها فقد انفطر فؤادي عليها غمًا.

قال العلَّامة: كن طيب الخاطر يا يوسف؛ إن تركناها فلا عار علينا لأننا نتركها رغم أنفنا فتخدمنا حتى ننزف جميع قواها؛ فإني أطلب منها أن تخدمنا بعدُ أربعا وعشرين ساعة.

فأخذ يوسف يتفرس فيها وقال: قد خارت قواها وانحلت وكادت روحها تزهق؛ وا أسفاه عليها!

قال الصياد: يا معلمي صموئيل انظر إلى الأفق؛ إني أرى جبالًا، لعلها الجبال التي ذكرتها.

فأخذ العلَّامة نظارته ونظر بها إلى الأفق ثم قال: إنها هي بعينها، وأراها شامخة فيشق علينا قطعها.

قال الصياد: ألَا يمكننا أن نتحاشى من المسير فوقها؟

قال العلَّامة: لا أظن؛ لأنها تشغل مسافة كبيرة من الأرض، وهي نحو نصف امتداد الأفق.

قال يوسف: ويتراءى لي أنها تتزاحم حولنا وتحدق بنا يمنة ويسرة، فلا بدَّ لنا من المرور فوقها.

وكانت هذه الجبال تستبين سائرة لملاقاة السواح وتقترب منهم بسرعةٍ لا مزيد عليها، أو بالحري كانت الريح عاصفة تقذف بالمنصورة نحو القمم الرفيعة فكان لا بد لها من الارتفاع على كل حال وإلَّا صدمت الصخور وتلفت.

قال فرغوسن: فَلَنُفْرِغَنَّ صندوق الماء فلا يبقى منه إلا ما يلزمنا للشرب يومًا واحدًا.

فأفرغه يوسف وقال: هاك؛ قد أفرغناه.

فسأل الصياد: هل ارتفعت القبة؟

أجابه العلَّامة: قد ارتفعت قليلًا؛ أي مسافة خمسين قدما ولم يكن العلَّامة يحول نظره عن ميزان الهواء، غير أن هذا الارتفاع غير كاف لمجانبة خطر مصادمة الجبال، وفي الحقيقة إن القمم الشامخة كانت تصادر السواح كأنها واثبة عليهم لتطبق على رؤوسهم وكانوا يبعدون عن علوها مسافة خمسمائة قدم.

فرموا من القبة أيضًا بمؤنة الماء اللازمة للأنبوبة، ولم يبقوا منها إلَّا قليلًا.

قال العلَّامة: فلابد لنا من المرور فوق الجبال؛ فما الحيلة؟!

قال ديك: فلنلقِ عنا الصناديق حيث أفرغناها!

قال العلَّامة: أَلْقُوها.

فألقاها يوسف وقال: آهًا على الخسارة؛ ما أمرَّها!

فقال له العلَّامة: يا يوسف لا تخاطرن بحياتك لأجلنا كما صنعت فيما مضى!... احلف لي أنك لا تفارقنا!

قال يوسف: طب نفسًا يا معلمي؛ إننا لا يفارق بعضنا بعضًا.

أما المنصورة فقد زادت صعودًا نحو عشرين قامة لكنها لم تزل منخفضة عن قمة الجبل، وكانت هذه القمة شبه مسلة منتصبة قائمة في رأس جبل شامخ كأنه مخروط بالبيك، وكانت تعلو السواح مسافة مائتي قدم.

قال العلَّامة في نفسه: من الآن إلى عشر دقائق يصدم القارب هذه الصخور

ويتحطم بها إذا لم يتيسر لنا أن نرتفع فوقها.

قال يوسف: والآن كيف الحال يا سيدي صموئيل.

أجابه العلَّامة: اطرح كل هذا اللحم المثقل على القبة، ولا تُبْقِ إلّا مؤنتنا من مربّى اللحم.

فطرحوا اللحم الآخر وخفت القبة من ثقل خمسة وعشرين رطلًا فارتفعت ارتفاعًا ظاهرًا، ولكن ما الفائدة طالما لا تعلو قمم الجبال، وعليه كانت المنصورة في حالةٍ تُلْقِي شديد الرعب والهول في قلوب السواح؛ إذ كانت تسرع سرعة الطير فلو لطمت الصخور لذهبت إربًا إربًا.

فنظر العلَّامة إلى ما حوله في القارب فوجده كأنه فارغ ويكاد لا يكون فيه شيء.

فقال لديك: إن اقتضى الأمر!... ينبغي أن تكون مستعدًا لطرح أسلحتك!... فلما سمع ديك هذا الكلام ارتجفت جميع أعصابه، فأجاب: هل ترى أضحي بأسلحتي؟!

قال له العلَّامة: يا صاحبي لا يخطرن على بالك أن أطلب منك تضحية بأسلحتك بدون ضرورة قصوى.

قال ديك: صموئيل صموئيل!... وانقطع كلامه لشدة حركة الكدر.

قال له العلَّامة: إن نجاتنا من الهلكة موكولة بتخفيف القبة من ثقل أسلحتك ومؤنة البارود والرصاص.

ثم هتف يوسف قائلًا: قد قربنا قد قربنا!... عشر قامات فقط؛ هيا يا رجال! إن الجبل يعلو المنصورة مسافة عشر قامات أيضًا قال هذا وأخذ الأغطية ورمى بها إلى الثرى، ثم رمى بجملة جعب مملوءة رصاصًا بدون استشارة كنادي.

فصعدت القبة وجازت القمة المخطرة، وضاء قطبها الأعلى بأشعة الشمس، أما القارب فلم يزل أخفض من الصخور العظيمة التي أزمع أن يلطمها ويتحطم بها لا محالة.

فعندها صاح العلَّامة: ديك ديك!... ارم بأسلحتك وإلّا هلكنا!

قال يوسف: مهلًا يا سيدي ديك مهلًا!

فالتفت ديك فرآه قد توارى خارج القارب فصاح به: يا يوسف يا يوسف!

ثم صاح العلَّامة: وا أسفاه على يوسف!

فكانت مساحة قمة الجبل في ذاك المكان نحو عشرين قدمًا ومن الجهة الأخرى كانت منحدرة قليلًا فوصل القارب على تمام مساواة هذه القمة المنبسطة وزحف على أرض محصبة فسمعت قعقعة الحصى بمروره.

فصاح واحد من الرفاق قائلًا: الحمد لله والشكر لله مررنا ونجونا من الخطر، فسمعه فرغوسن وطفح قلبه سرورًا؛ إذ كان يوسف الشهم الشديد البأس الذي رمى بنفسه على الثرى ولبث شابث اليدين بطرف القارب الأسفل، وأخذ يسير بقدميه على قمة الجبل مخففًا على هذا النحو عن القبة ثقل جسمه حتى كان مضطرًا إلى أن يشد يديه عليها لئلا تتعالى

وتفلت من أمامه.

فلما وصل إلى منحدر الجبل وأشرف على الهاوية قد تسلق متمسكًا بالحبال تمسكًا شديدًا فجاء حذو رفيقيه في القبة وهو يقول: ما أسهل هذه الحيلة!... وما أحسن ما قاله أحد الأدباء: وإذا جار عليك الدهر فليكن عندك حيلة!

فعندها ناداه العلَّامة وقلبه يخفق بهزة الفرح: عافاك الله يا يوسف حبيبي!... عافاك الله لا ثكلتك أمك!

أجابه يوسف وهو يتفكه بالكلام: لم أعمل ما عملته لشأنكم يا سيدي، بل لشأن قرابينة الموسيو ديك؛ فإني كنت مدينا له بهذا العمل منذ واقعة الأعرابي، فأحب وفاء ما عليَّ من الدين فوفيته وأصبحنا الآن على سوية حال وراحة بال؛ قال هذا وقدم للصياد قرابينته التي كانت عنده أعزَّ شيء في الدنيا وقال له: لكان قد شق عليَّ جدًا لو رأيتك خاليًا منها.

أما كنادي فشدَّ على يده علامةَ الوداد ولم يدعه الفرح يفوه بكلمة.

فمن بعد ذلك لم يكن للمنصورة إلَّا أن تهبط منخفضة، وكان انخفاضها من أيسر الأمور؛ فما مضى برهة من الزمان إلَّا وجدت بعيدة عن الثرى مسافة مائتي قدم فقط، وحازت تمام موازنتها، وكانت الأرض تستبين كأنها مصابة بالزلزلة، وكان عدم مساواة سطحها يأتي بعوائق تعسر مجانبتها ليلًا بمركبة هوائية لم تعد تلبي إدارة مديرها، فلما خيم الليل عزم العلَّامة على الوقوف حتى الصباح، رغمًا عن اشمئزازه من المبيت في أرض تلك البلاد.

فقال العلَّامة: هيا بنا نفتش عن محل مناسب لنقف فيه.

أجابه كنادي: عجبًا يا سيدي أراك جزمت على الوقوف في هذه الأرض!

قال العلَّامة: نعم؛ لأنني قد أمعنت فكري بشيء وتبصرت فيه زمانًا طويلًا، فأريد الآن أن أبرزه إلى حيز الفعل؛ فالآن الساعة السادسة، فقط بقي إذًا لنا زمن للعمل؛ فألقِ المرساة يا يوسف!

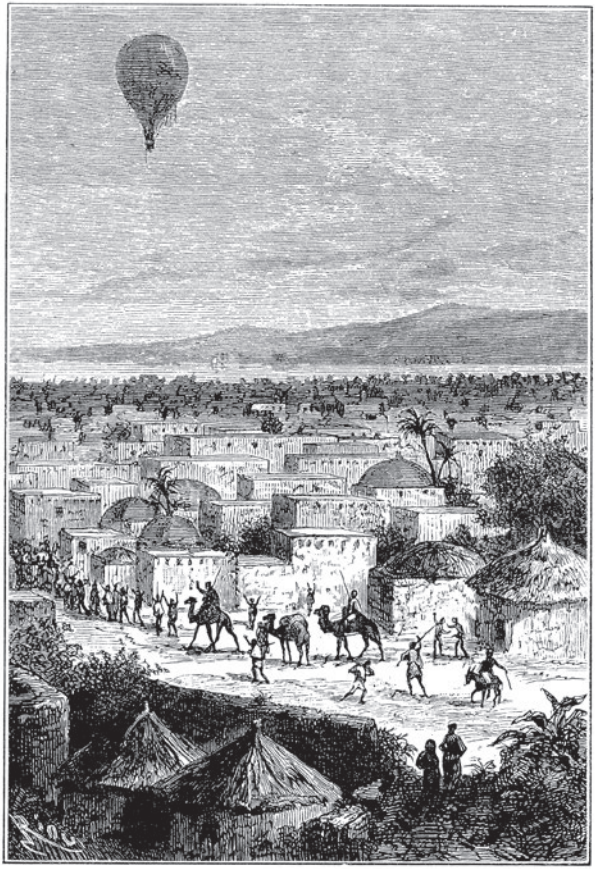
فامتثل يوسف أمره في الحال وألقى المرساة، وكانت مُدْلاة تحت القارب.

ثم قال العلَّامة: إني أرى غابات فسيحة فعلينا أن نسرع إلى فوق قممها ونقف متشبثين على رأس شجرةٍ من أشجارها؛ لأنني لا أريد قط أن أبيت الليل على الأرض ولو ملكوني هذه البلاد برمتها.

قال ديك: أنستطيع النزول؟

قال العلَّامة: وما الفائدة من نزولنا وقد قلت لكم إن في انفصالنا خطر على حياتنا، غير أني أستعين بكم على عمل عسير.

أما المنصورة فكانت تطفو في الهواء فوق قمم الغابات المشار إليها، ولم تبطؤ أن وقفت فجأة لأن مرساتها قد تعلّقت، ولما سكنت الريح مساء لبثت كأنها جامدة فوق تلك الرياض الخضراء المتألِّفة من رؤوس أشجار غابةٍ من الجميز.



الفصل الأربعون

في المنازعة بينهم على الشهامة وآخر رزئهم وآلة التفسيح ولباقة
يوسف وما جرى نصف الليل وهجعة العلَّامة وهجعة كنادي وتناعسه
والحريقة والضجيج والعويل وأخطاء طلقات الرصاص

فأخذ العلَّامة فرغوسن يبحث عن مركز القبة فوجدها بقياس علو النجوم بعيدة عن سنغال نحو خمسة وعشرين ميلًا فقط.

فبعد أن علَّم خارطته قال: جل ما يمكننا عمله يا خليلَيَّ إنما هو أن نجوز النهر، وحيث لا جسر للنهر ولا قوارب لنا فقد تحتم علينا أن نجوزه بالقبة، ولهذا لزمنا أيضًا أن نخفف حملها.

أجاب الصياد، وكان يخاف على سلاحه: لا أدري بأية طريقة نتوصل إلى تخفيفها إلَّا أن يتهجم أحدنا على النزول منها ويبقى وراءنا؛ فأنا مقدم ذاتي إلى هذه الخدمة لأن هذه المرة قد جاءت نوبتي.

أجابه يوسف: قد أخطأ سهمك؛ أنا المعود على مثل هذا العمل.

قال له الصياد: ليس المقصود هنا يا صاح الانحدار من القبة إلى أسفل

بل السير مشيًا حتى الساحل، أما أنا فصياد متين وأعد نفسي أشد منك جريًا؛ فهذا عملي.

أجابه يوسف: وحياتك لا يقدم على هذا العمل غيري.

قال فرغوسن: لا فائدة يا صاحبي من نزاعكما على المروءة، لأني أؤمل ألَّا تتوصل بنا الحال إلى حد هذه الشدة، ومع ذلك، إذا اقتضى الأمر، لا نفترق أبدًا بل ننحدر جميعنا ونجتاز بهذه البلاد معًا.

قال يوسف: لا أَصْوَبَ من هذا الرأي؛ فلا بأس من بعض المشي في هذه الأراضي.

أجاب العلَّامة: هلموا نبادر قبلًا إلى إجراء آخر ما بقي لنا من الوسائل لتخفيف ثقل المنصورة.

قال كنادي: وما عسى تكون هذه الطريقة؛ يهمني أن أعرفها؟!

قال العلَّامة: يلزمنا أن نرفع عن المنصورة ثقل صناديق الأنبوبة والآلة الكهربائية والحية، وكل هذا يزن نحو نصف قنطار يعسر حمله في الفضاء على أجنحة الريح.

قال كنادي: يا صموئيل!... كيف يتيسر لك بعد ذلك نشر الغاز وتوسيعه؟!

قال العلَّامة: لا يتيسر لي غير أني أستغني عنه.

قال كنادي: وكيف ذلك؟!

قال العلَّامة: يا صاحبي!... إنني قد ضربت حساب ما بقي للمنصورة من

قوة التصاعد فوجدتها كافية لتحملنا مع ما بقي لنا من الأمتعة القليلة، فيكاد ثقلنا يوازي قنطارين مع المرساتين اللتين أبقيهما.

أجاب الصياد: سيدي الحبيب صموئيل!... إنك أعلم منا في هذا الأمر ويعنيك وحدك الجزم والتدبير في أمر المسير؛ قل لنا ما يجب عمله فإننا لك طايعان ولأمرك خاضعان.

قال العلَّامة: قد قلت لكما أيها الأحباء لا بد لنا من تضحية آلاتنا مهما كان الاعتماد عليها باهظًا كبيرًا.

أجابه كنادي: ضحها ولا بأس!

قال يوسف: هلمَّ بنا للعمل!

ولم يكن ذلك عملًا من صغار الأعمال؛ إذ يلزم تفكيك الأدوات قطعة فقطعة، فرفعوا صندوق المزج ثم صندوق الأنبوبة وأخيرًا صندوق حل عنصري الماء، وقد تواطأ الثلاثة السواح وجدُّوا بتمام عزمهم حتى تمكنوا من خلع الأوعية المحبكة بالقارب، فكان كنادي ذا عزم شديد ويوسف ذا لباقة ونباهة وصموئيل ذا حذق ودراية حتى انتهوا من عملهم نهاية التوفيق والنجاح.

فألقوا هذه القطع شيئًا فشيئًا خارج القبة فسقطت على أوراق الجميز خارقة فيها خرقات فسيحة.

قال يوسف: إن السودان يأخذهم العجب لدى مصادفتهم هذه الأشياء في الغابات ولا يبعد أنهم يصنعون منها أصنامًا يعبدونها.

ثم بادروا إلى الشغل بتفكيك الأنابيب المشبثة بالقبة والموصولة بالحية اللولبية فتيسر ليوسف أن يقطع الصلات الصمغية على علو بعض أقدام فوق القارب، أما الأنابيب فكان فصلها متعسرًا لأنها كانت موصولة بطرف القبة الأعلى، وممكنة بشرائط من نحاس أصفر في نفس دائرة منفذ الغاز.

فعندها شمر يوسف عن ذراع لباقته العجيبة وخلع نعليه من رجليه حذرًا من أن يخطط نسيج القماش بحذائه وتمسك بالشبكة الملتفة بها القبة، وشرع يتسلق إلى أن بلغ قمة المنصورة الخارجة، وهناك تمسك باليد الواحدة في ذاك السطح الزلق وبالأخرى بعد كد كديد وجهد جهيد قلع البراغي البرانية الضابطة للأنابيب، فحينئذٍ تفككت الأنابيب بسهولة وسحبت من الطرف الأسفل الذي سدت ثغرته سدًا محكمًا بعقدة شديدة.

فلما تخففت المنصورة من هذا الحمل الكبير استوت في الهواء وأوترت حبل المرساة بشدة.

فنجزت كل هذه الأشغال نصف الليل بغاية التوفيق، لكنها قد كلفت الفعلة أتعابًا ومشقات لا مزيد عليها ثم تناولوا على وجه السرعة ما تيسر لهم من الطعام النيِّئ، لأن العلَّامة لم يعد عنده نار يطبخ بها يوسف طعامًا.

غير أن يوسف وكنادي قد أعياهما الشغل فقال لهما فرغوسن اضَّجِعا وناما يا صاحبي؛ فأنا أسهر الهجعة الأولى، وفي الهجعة الثانية أوقظ كنادي ليسهر هجعته، والهجعة الثالثة كنادي يوقظ يوسف ونسافر الساعة السادسة ونسأل باري العباد أن يرمقنا بعين عنايته في هذا النهار الأخير.

فبدون أن يكرر عليهما العلَّامة أمره اضَّجعا وناما في قعر القارب وأسرع إليهما النعاس فاستغرقا في السبات.

وكان ذاك الليل هادئا والفلك صافيًا إلَّا أن بعض غيوم كانت تخيم على القمر البالغ ربعه الأخير فكادت أشعته لا تنفذ خلالها وكان فرغوسن متمكنًا على طرف القارب يجول بنظره إلى ما حوله، ويسهر متيقظًا على أوراق الشجر الغضة المنبسطة تحت قدميه، حاجبة بظلها منظر الأرض، ويجفل من أدنى حركة ويتقصى علة كل حفيف وهزيز.

وكان في هذه الحال يزداد باله قلقًا وتشوشًا لوجوده في مفازة مرعبة، فأخذت الأهوال تدركه والقلاقل تشغل دماغه لأن المخاوف تزداد هيجانًا والرعشات ثورانًا عند ما يكون السائح دنا من نهاية مثل هذه السياحة وقاسى مشقات ومخاطر شتى، فحينما يقارب نهاية السياحة يُخَيَّلُ إليه الميعاد فارًا من أمامه.

زد على ذلك أن حالتهم كانت تنفي الاطمئنان؛ إذ إنهم في وسط بلاد بربرية ومتعرضون في كل وقت لخطر فقدان ما كان لهم من الواسطة الوحيدة لخروجهم منها؛ لأن العلَّامة لم يكن يركن إركانًا قطعيا إلى القبة الهوائية؛ إذ لم تعد كما كانت فيما مضى حين كان يديرها بكل طمأنينة وهي تلبي إدارته.

وفيما كان العلَّامة فريسة لهذه الهواجس تراءى له أحيانًا أنه يحس بدوي في تلك الغابات الرحيبة، حتى خُيِّلَ إليه نار مشبوبة بين الأشجار فدقق نظره حيث تخيلها ثم تناول نظارته الليلية ونظر بها إلى تلك الجهة فلم ير شيئًا، بل ظهر له أنه قد انقطع الدوي وزاد الهدوء والسكينة.

فتحير وخطر على باله أن قومًا يرصدونه خفية ليغدروا به، فلبث يتوجس ويتسمع ولم يشعر بأدنى حركة فمضى وقت هجعته وأيقظ كنادي وأمره بشديد التيقظ والسهر واضَّجع حذو يوسف المستغرق في النوم.

أما كنادي فأخذ يعبئ غليونه تبغًا وهو على أتم الهدوء والرواق ويفرك عينيه؛ إذ كان يشق عليه فتحهما من شدة النعاس، ثم سند رأسه إلى كوعه وأخذ يدخن بغليونه مثيرًا منه الدخان كالعجاج لكي يطرد من صدره عفريت النعاس.

وكان كل ما حوله في هدء وسكينة إلّا نسيمًا لطيفًا يثني أفانين الأشجار ويهز القارب هزًا خفيفًا ويزيد على الصياد سطوة النعاس المستولي عليه رغمًا عن إرادته فعمد إلى مقاومته بعزم، وكثيرًا ما كان يفتح مقلتيه ويطرق حينًا بعد حين بنظره إلى الظلام فلا يرى فيه شيئًا، وأخيرًا تغلب عليه التعب فسلط عليه النعاس إلَّا أنه لم يَدْرِ كم من الزمن مكث في راحة النوم عندما أيقظه تكتك حريق فهب من رقاده ففرك عينيه ونهض على قدميه فشبت حرارة شديدة في وجهه من النار المضطرمة في الغاب.

فصاح وهو لا يدري علة هذا السعير النارَ النارَ!

فهبَّ صاحباه من رقادهما، وصاح صموئيل مرتعدًا: ما هذا؟!

قال يوسف: هذه حريقة ولكن من تراه قد...

وعندها سمع ضوضاء وضجيجًا تحت أوراق الشجر المضية باللهيب.

فصاح يوسف: قاتل الله هؤلاء البرابرة!... فإنهم قد أضرموا النار بالغاب ليحرقونا لا محالة.

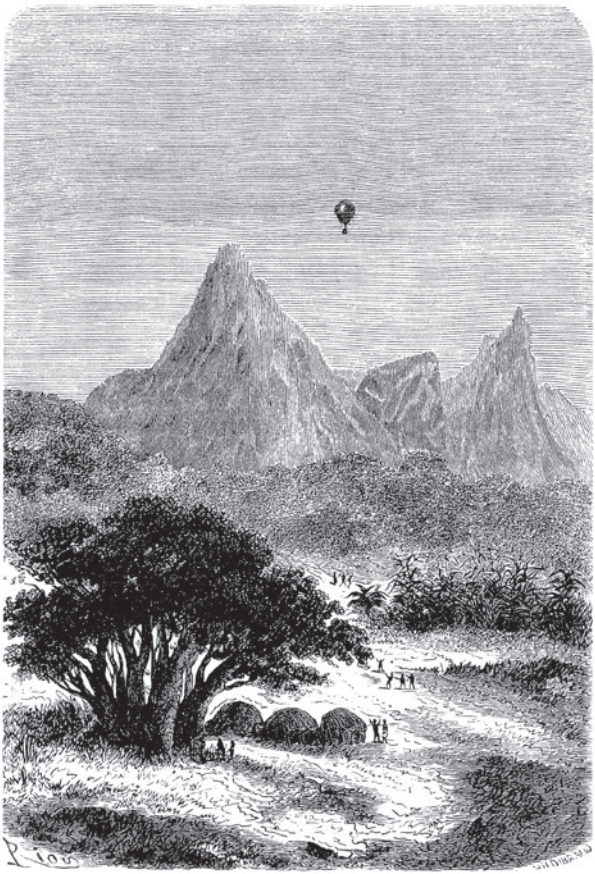
قال العلَّامة: لا شك أن هذا عمل جماعة الطلبة؛ أي مشائخ الحجي.

وكانت النار تحدق بالمنصورة وتسمع قرقعة الحطب اليابس وعنين الأغصان الخضراء، وكل حي من ذاك النبات يقوس ويلتف في العنصر المبيد، ولم يكن يعاين الطرف إلّا بحرًا من لهيب، والأشجار الكبيرة تستحيل إلى سواد في وسط الأتون، وأغصانها مغشاة بجمر نار مضطرمة، وكان هذا اللهيب والحريق ينعكس ضياؤه على الغيوم حتى خيل للسواح أنهم قائمون في وسط دائرة من نار.

فصاح كنادي: الفرارَ الفرارَ على الثرى. ما من سبيل خلافه للنجاة.

أما فرغوسن فمسكه بيده مسكًا متينًا ووثب على حبل المرساة فقطعه بضربة فأس وما زال اللهيب يمتد نحو القبة وكان دنا منها حتى صار يلذع جوانبها المضية، فلما تملصت المنصورة من قيدها صعدت في الهواء وتعلت ما نيف عن مسافة ألف قدم.

فعندها علا صراخ وضجيج هائل من قعر الغاب، تلاه طلقات بنادق فلم تصب القبة بل أخذ الهواء يقذف بها نحو الغرب حتى أصبح الصباح وبلغت الساعة الرابعة بعد انتصاف الليل.



الفصل الحادي والأربعون

في جماعة الطلبة ومطاردتهم السواح واعتدال الريح وانخفاض
المنصورة وآخر مؤنتهم ودفاعهم بطلق البنادق ونهر سنغال وشلالات
غويني والهواء الحار وأمجاز النهر

قال العلَّامة: لو لم نخفف حمل المنصورة البارحة مساء لكنا هلكنا لا محالة.

أجابه يوسف: ما أحكم عمل الأمور في أوقاتها! فإن عاقبتها النجاة من الهلكة، وما في ذلك من عجب.

قال فرغوسن: لم نأمن بعد من الخطر.

قال ديك: لا تخف يا سيدي!... إن المنصورة لا تنحدر على الثرى بدون إذنك، وإن افترضنا أنها تنحدر ترى ما تكون غايلتها؟

قال العلَّامة: تسألني ما تكون غائلة انحدارها يا ديك!... انظر إلى ما وراءك!

فنظر ديك وكانت السواح قد جازوا حدود الغاب فرأوا موكبًا من فرسان

لابسين سراويل كبيرة وعلى أكتافهم برانس تعوم في الهواء وجميعهم مسلحون؛ بعضهم برماح وبعضهم ببنادق فيجرون إلى جهة مسير المنصورة السائرة في الهواء سيرًا معتدلًا.

فلما نظروا السواح عووا عواء الذئاب الكاسرة مشرعين إليهم الرماح وعلى سحناتهم السمراء تلوح أمارات الغضب والوعيد ومما يزيد منظرهم توحشًا لحى لهم متفرقة الشعر، لكنها مقشعرة، فجازوا بدون عناء تلك الهضاب المنخفضة وتلك الدرجات المنفرجة المودية إلى سنغال.

قال العلَّامة: هؤلاء هم جماعة الطلبة؛ القوم القساة؛ شيوخ الحجي، الوحوش الكاسرة، وإني لأوثر القيام بوسط غاب تحدق به الضباع من أن أقع بين أيدي هؤلاء الأشقياء.

قال كنادي: الحق يقال؛ إن هؤلاء القوم ليس على وجوههم أمارات الصلح والسلام، بل إن هيئتهم تنبئ عن جسارة فيهم وشدة بأس وشر اقتحام.

أجاب يوسف: إلَّا أن هؤلاء الوحوش ليسوا بطائرين، وهذا من حسن حظنا، ونعم التوفيق.

قال فرغوسن: انظرا يا خليليَّ هذه القرى الدارسة والبيوت المحروقة؛ فهذا عملهم، وقد أنزلوا الدمار والبوار في الأراضي العامرة والبقاع الناضرة.

أجاب كنادي: مهما كان من أمرهم فإنهم لا يقدرون أن يدركونا، وإذا تيسر لنا أن نجعل النهر فيما بيننا وبينهم أمنا من شرهم وعرارهم.

أجاب العلَّامة: قد أصبت يا ديك؛ إنما الأهم ما يكون الآن، وهو التحاشي

من الهبوط؛ قال هذا وهو ينظر إلى ميزان الهواء.

أجاب كنادي: كيفما كان الحال فلا بأس من أن نعد أسلحتنا.

قال يوسف: ما في ذلك من محذور يا ديك، وقد أصبنا بعدم بذرها على الطريق.

فعندها صاح الصياد: وايم الله؛ إن قرابيني لن تفارقني وقد حشاها بمزيد الاعتناء، وكان بقي عنده من البارود والرصاص كمية وافرة، ثم سأل العلَّامة: ترى يا فرغوسن ما علو المنصورة؟

قال العلَّامة: نحو سبعمائة وخمسين قدمًا، إنما لم يعد في مكنتنا أن نصادف مجاري أرياح توافقنا صعودًا أو نزولا؛ إننا سائرون على رحمة القبة.

قال كنادي: لا حول ولا قوة إلّا بالله؛ إن الريح خفيفة فلو صادفتنا عاصفة مثل تلك العواصف التي أصابتنا في الأيام الماضية لغاب هؤلاء الأشقياء عن نظرنا منذ الآن.

قال يوسف: ها إن هؤلاء الأشرار تابعون لنا؛ فكأنهم يتنزهون في متابعتنا.

قال الصياد: لو كنا على مسافة رمية رصاص لكنت أتنزه في رميهم واحدًا فواحدًا.

أجاب فرغوسن: أي نعم، ولكن لكانوا هم أيضًا على رمية رصاص منا ولكانت المنصورة أيسر هدف لطلقات بواريدهم، فإذا ما مزقوها بالرصاص تأمل أي مصير يصير حالنا، حمانا الله من مثل هذه الدواهي.

أما جماعة الطلبة فلم يزالوا يتابعون السواح في مدة كل ذاك الصباح، وكانت القبة قد قطعت مسافة خمسين ميلًا نحو الغرب قبل الساعة الخامسة، وكان العلَّامة يراقب الفلك ويدقق النظر في أدنى الغيوم المرتفعة في الأفق، ولا يزال يتوجس تغيرًا في الجو ويقول في ذاته: ما يكون حالنا إذا ما دفعتنا الرياح نحو النهر الأسود؟

هذا، وكان يرى القبة تميل إلى الانخفاض ميلًا ظاهرًا، وقد كانت انخفضت منذ سفرها مسافة أكثر من ثلاثمائة قدم، وسنغال تبعد عنهم نحو اثنى عشر ميلًا فيلزمهم من الوقت للوصول إليها ثلاث ساعات على معدل سيرهم الحاضر.

فطرق سمع العلَّامة حينئذٍ صياح وضجيج جديد وتفرَّس فرأى خيالة الطلبة يضجون في تعجيل جري خيلهم.

فنظر العلَّامة إلى ميزان الهواء فعلم علة هذا العواء والضوضاء.

قال كنادي: لعلَّ القبة تنخفض.

أجاب فرغوسن: نعم.

قال يوسف: نعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

وما مضى ربع ساعة من الزمان إلا وقد أمسى القارب على مسافة مائة وخمسين قدمًا من الأرض، أما الريح فقد ازدادت قوة.

فاستكدت جماعة الطلبة خيولهم جريًا، وسُمِعَ في الحال طلقة بوارید في الفلاء.

فصاح بهم يوسف: خطأت طلقتكم يا همج، إنما يحسن بنا أن نبعد عنا هؤلاء الأنذال.

قال هذا وصوب بارودته إلى واحد من الخيالة السابقين وأطلقها فأصابه الرصاص فسقط يخبط بدمائه على الثرى فوقفت أرفاقه وأخذت المنصورة بالمسير ففاتتهم.

قال كنادي: أراهم ذوي تحفظ.

أجاب العلَّامة: نعم؛ لأنهم موقنون قبضهم علينا، وإذا نزلنا بعد لنالوا مأربهم منا، ومن ثَمّ لا بد لنا من الصعود.

قال يوسف: وما نلقيه من القبة لتخفيف حملها؟

قال العلَّامة: ينبغي أن نرمي منها بكل ما بقي من مؤنة مربى اللحم؛ فإن وزنه يساوي ثلاثين أُقَّة ينبغي أن نتملص منه.

فأسرع يوسف بامتثال أمر العلَّامة فرمى به قائلًا: هاك يا معلمي!... رميت ولا أسف عليه.

وكاد القارب يمس الثرى ومن بعد هذا ارتفعت القبة وأخذت جماعة الطلبة بالضجيج والصراخ؛ أما المنصورة فعادت بعد نصف ساعة تنخفض بسرعة والغاز ينصرف بخلال الغطاء.

فانخفض القارب إلى الثرى حتى كاد يمسها بمروره فأسرعت جماعات الطلبة نحو القبة وأوشكوا أن يصلوا إليها ولكن قد حدث حينئذٍ ما من عادته أن يحدث في مثل هذه الظروف وهو أن القبة بعدما انخفضت

وكادت تقف على الثرى قفزت مرتفعة في الفلاء ولم تهبط من جديد إلا بعدما سارت مسافة ميل واحد.

قال كنادي بغيظٍ: ترى هل لابد لنا من الهبوط بين أيدي هؤلاء القوم؟!

فصاح العلَّامة بيوسف: ارم بما بقي عندنا من مؤنة الماء وبالآلات وبكل ماله أدنى ثقل حتى المرساة نفسها، فمسك يوسف موازين الهواء وموازين الحرارة ورمى بها، إنما لم يأت هذا إلَّا بما قلَّ من التخفيف والقبة التي كانت ارتفعت هنيهة قد عادت سريعًا فهبطت على الثرى وجماعة الطلبة تسرع سرعة الطير في إثرها، ولم يكن بينها وبينهم أكثر من مسافة مائتي قدم.

فعندها صاح العلَّامة: ارم بالبارودتين إلى الأرض.

أجابه الصياد: لا أرمي بهما قبل أن أطلقهما.

قال هذا وأطلق بهما أربع طلقات فأصاب أربعة منهم بالرصاص، فعرَّت حينئذٍ أرفاقهم عرير الوحوش الكاسرة، وعوت عواء الذئاب.

أما المنصورة فعادت ترتفع وهي تقفز قفزات الكرة المرنة الواقعة على الأرض.

والحاصل ما كان أغرب من مشهد هؤلاء المساكين المحاولين الفرار من الهلكة بمركبة تقفز بهم قفزات الجبابرة، كأنها تستعيد قواها عندما تمس الحضيض، إنما لم يكن بد من نهاية هذه الحال، وكان نحو الظهر والقبة قد نهكت وتفرغت وتروست وأمسى غطاؤها مرتخيًا دائمًا في

الهواء وتتراكم الطيات في القماش متلاطما بعضها ببعض.

أما يوسف فلم يجب بشيء بل لبث يتفرس بمعلمه ويرقب أمارات محياه.

قال كنادي: لا طريقة للنجاة ولا بد من الهبوط.

ثم قال العلَّامة: لا؛ بل بقي علينا أن نخفف حمل المنصورة بأكثر من مائة أُقَّة.

فتعجب كنادي من كلام العلَّامة هذا، وظن أنه اعتراه جنون.

فقال: وما عندنا نلقيه من القبة؟!

قال العلَّامة: القارب؛ هلموا نتشبث بالشبكة، فيمكننا أن نتمسك بعراها ونقطع النهر؛ فالبدارَ إلى هذه الوسيلة!

فلم يتوقف هؤلاء الرجال الجسورون عن البدار إلى هذه الواسطة الأخيرة للنجاة من الهلكة، فتعلّقوا بعرى الشبكة كما أرشدهم العلَّامة، وكان يوسف متمسكًا بيد في الشبكة وبالأخرى يقطع حبال القارب فسقط عندما كانت القبة تهوي نازلة إلى الحضيض لا محالة فلما تخففت القبة من ثقل القارب تعالت في الفضاء مسافة ثلاثمائة قدم فهتف يوسف هتاف الفرح وقال: سيري باسم الله مجراك.

فدقت الطلبة الركاب وأخذت الخيل بالإهماج، أما المنصورة فقد صادفت ريحًا شديدة فسبقتهم وأسرعت نحو أكمة تحجب أفق الغرب فكانت للسواح أكبر توفيق للمسير لأنهم قد تمكنوا من الاجتياز فوق رأسها أما الطلبة فقد اضطروا أن يأخذوا طريق الشمال ويدوروا على أسفل

الهضبة، فطالت بهم الطريق وتأخر مسيرهم.

وكانت الثلاثة الرفاق متمسكين بالشبكة، وقد تيسر لهم أن يسدوا ثغر القبة فجاءوا بها كأنها جيب يعوم في الهواء.

فما عتموا أن جازوا الهضبة وإذا بالعلَّامة يصيح: النهر النهر يا أيها الأحباء؛ نهر سنغال لأنهم نظروا أمامهم على مسافة ميلين نهر سنغال يجري في مسيل منفرج جدًا؛ فالشاطئ الآخر؛ موقعه منخفض وتربته مخصبة، كان ملجأ مأمونًا من أصحاب التعدي والأذى، ويصلح للسواح محلًا للنزول.

قال فرغوسن: بقي علينا مسير ربع ساعة فننجو من أسوأ غائلة.

إنما لم يتيسر لهم ما كانوا يبتغونه لأن القبة كانت تنحدر شيئًا فشيئًا وهي فارغة حتى استوت على أرض كادت تخلو من كل نبات وهي حدورات طويلة وسباسب مصخرة ليس فيها إلَّا بعض العليق وأعشاب كثيفة يبستها حرارة الشمس.

والمنصورة انقضت على الثرى وقفزت مرارًا عديدة، وكانت قفزاتها تقل قوة حتى علقت بعد قفزتها الأخيرة بأطراف الشبكة في رؤوس أغصان شجرة البوبات، وهي الشجرة الوحيدة في تلك البلاد الغامرة.

قال الصياد: قد انتهى الأمر.

قال يوسف: ولسنا بعيدين عن النهر إلّا مسافة مائة قدم.

فحل هؤلاء السواح الثلاثة المنكودو الحظ على الأرض، وذهب العلَّامة

برفيقيه إلى جهة سنغال، وكان النهر يدوي دويًا مديدًا فلما وصل فرغوسن إلى شاطئه عرف شلالات غوينا فلم يجد قاربًا على ضفته ولا ما فيه نسمة حياة.

وكانت مياه النهر تنحدر من علو مائة قدم إلى مسيل عرضه ألفا قدم، ويسمع لها دويٌّ طنان فتجري من الشرق إلى الغرب ويعترض مجراها رصيف صخور ممتدة من الشمال إلى الجنوب، وفي وسط الشلالات صخور منتصبة بأشكال غريبة كأنها أسماك جسيمة محجرة.

وكان عدم إمكانهم مجاز هذه الوهدة من الأمور الواضحة، ومن ثَمّ لم يتمالك كنادي نفسه من إبداء أمارة اليأس والقنوط.

أما العلَّامة فرغوسن فلم ييئس، بل سُمِعَ على الفور يهتف هتاف النشاط والجراءة قائلًا: ثقا؛ لم يزل لنا باب للنجاة!

قال يوسف: هذا كان أملي بلباقتك ودرايتك، وكان يوسف يثق بمعلمه ثقة غير متزعزعة، أما العلَّامة فكان قد شاهد العشب اليابس الكاسي ضفة النهر وخطر له على بال فكر أعده الحيلة الوحيدة لنجاتهم من الهلكة، ففي الحال رجع برفيقيه إلى القبة وقال لهما: إن بيننا وبين أولئك الأشقياء مسافة ساعة فأسرعا بجمع كمية وافرة من هذا العشب اليابس؛ فيلزمني منه على الأقل مائة لبرة.

فسأله كنادي: ما فائدته لنا؟!

أجابه العلَّامة: ليس عندي غاز فإنني أحمل المنصورة على جناح الريح بالهواء، والحالة هذه فإني أجوز النهر بقوة هواء ساخن.

فعندها صاح كنادي: عافاك الله يا خليلي حقًا!... إنك من كرام الرجال!

فانكب يوسف وكنادي على العمل، وما مضت برهة إلا وجمعا كديسًا كبيرًا من العشب فجعلوه تحت شجرة البوبات، وكان العلَّامة وقتئذٍ قد وسع ثغر القبة بشقه إياه في أسفله وأخرج من اللولب كل ما كان باقيًا من آثار الإدروجن، ثم كوَّم كمية من العشب تحت الغطاء وجعل النار فيه.

فأخذت القبة في برهة وجيزة تنتفخ بالهواء الحار؛ فيكفي من الحرارة مائة وثمانون درجة لتنقيص نصف ثقل الهواء الكاين في القبة، ومن ثَمّ شرعت المنصورة تتخذ شكلها الكروي، وكان العشب اليابس كثيرًا هناك والعلَّامة يَجِدُّ في إضرام النار، والقبة تنتفخ وتتدور على مرأى العين.

وكان مضى من الزمان ثلاثة أرباع الساعة فظهرت حينئذٍ على مسافة ميلين للشمال الطلبة وعلا ضجيجهم وصراخهم وسمعت دقة حوافر خيولهم المهمجة.

قال كنادي: من الآن إلى عشرين دقيقة يصلون إلى هنا.

قال العلَّامة: العشب العشب يا يوسف!... فبعد عشر دقائق نصبح راكبين الريح في الفضاء.

قال يوسف: هاك يا سيدي!

قال العلَّامة: فلنتمسكن بالشبكة كما عملنا سابقًا!

قال يوسف: لا تخف يا معلم لا تخف!

فما مضى عشر دقائق إلا وأخذت القبة تميد مبشرة بميلها للصعود وكان الطلبة قد دنوا منهم حتى لم يعودوا بعيدين عنهم أكثر من خمسمائة خطوة.

فصاح فرغوسن تمسكا جيدًا.

أجاباه: تمسكنا لا تخف.

فدفع فرغوسن برجله كمية من العشب إلى الموقد وكانت القبة قد أخذت تمام انتفاخها بازدياد الحرارة فارتفعت إلى الفضاء ماسة أغصان البوبات.

فعندها صاح يوسف: فلنرحل فأجابه الطلبة بطلقة بنادقهم فجاءت رصاصة في كتفه فثلمته ثلمًا خفيفًا، أما كنادي فانحنى وأطلق قرابينته بيد واحدة فأصاب واحدًا منهم فصرع على الثرى يخبط بدمائه، وكانت المنصورة تسرع بالصعود والطلبة يضجون ويولولون كيدًا وغيظًا بما يفوق وصف الواصفين إلى أن بلغت القبة في العلاء مسافة ثمانيمائة قدم عن الأرض، وريح عاصفة تقذف بها فوق مجرى النهر فلما بلغت إلى ما فوق تلك اللجج، وبينما كان العلَّامة ورفيقاه يتفرسون بلجة الميازيب المفتوحة تحت أقدامهم شعروا بالقبة كأنها تتمايل وتميد بهم تمايلًا وميدًا أوعب قلوبهم وجفًا وقلقًا، لكن عناية الرحمن قد وفقت مسيرها إلى خير النهاية فعقب عشر دقائق أخذت القبة بالهبوط شيئًا فشيئًا إلى الشاطئ الآخر.

وكان هناك نحو عشرة رجال عليهم ملابس إفرنسية استولى عليهم مالا

يوصف من الحيرة والدهشة والرعب عند مشاهدتهم تلك القبة ترتفع في الفضاء من جانب شاطئ النهر الأيمن، فلا يبعد أنهم خالوها في أول وهلة حادثًا سماويًا، أما رئيسهم وقائمقام البحرية وبيرقدار السفينة كانوا عارفين من جرائد أوربا مشروع سياحة العلَّامة فرغوسن الهمام الجسور، فما طال الحال حتى هدأ روعهم ووقفوا على حقيقة الواقع.

وكانت القبة تنفش شيئًا فشيئًا وتهبط بأولئك السواح الأبطال وهم متمسكون بعرى الشبكة، إنما لم يكن مؤكدًا أنهم يسقطون على الحضيض، فمن ثَمّ نزل الرجال الفرنسيس في النهر وتلقوا بين أيديهم الثلاثة الرجال الإنكليز عندما كانت القبة نازلة في النهر على مسافة بعض باعات من شاطئ سنغال الأيسر.

فصاح القائمقام: ألست العلَّامة فرغوسن؟!

أجابه العلَّامة، ورفيقاه بتمام الرواق والسكينة:بلى.

فتناول الفرنسيس السوَّاح وأتوا بهم إلى شاطئ النهر، أما القبة فقد كان انتفاخها من باب النصف فوقعت في النهر وجرتها المياه كفقاعة كبيرة فذهبت غريقة في شلالات غوينا.

قال يوسف وهو يأسف عليها: مسكينة المنصورة مسكينة.

أما العلَّامة فلم يتمالك نفسه عن البكاء، ففتح ذراعيه وعانق رفيقيه وقد خاضت قلوبهم بحر السلوان والحبور.

الفصل الثاني والأربعون

في الختام والتقرير والعمائر الفرنسية ومعسكر مدين ومدينة القديس لويس والبارجة الإنكليزية وعودة السوَّاح إلى لندرة



إن الرجال الإفرنسيين الذين وُجدوا على شاطئ النهر كان قد بعث بهم والي سنغال إلى تلك الأطراف، وكانوا اثنين من الضباط، وهما القائمقام دي فراس والبيرقدار رودامل ورئيس عشرة وسبعة أنفار من الجنود، وكانوا منذ يومين متشاغلين في التفتيش على أوفق محل لإقامة معسكر في غوينا ووافاهم على غير انتظارهم العلَّامة فرغوسن ومن معه.

فلا حاجة إلى وصف ما جرى من رسوم التهاني والمصافحة للثلاثة السواح، فحقق الفرنسيس أنفسهم إنجاز ذاك السفر المهول وقد أصبحوا شهود عيان لصموئيل فرغوسن.

ومن ثَمَّ قد رغب إليهم العلَّامة أولًا أن يحققوا تحقيقًا رسميًا وصوله إلى شلالات غوينا.

فسأل القائمقام دي فراس: ألَا تستحسن جنابك وضع إمضائك على صك الشهادة بواقعة سفرنا بل بلوغنا إلى هنا.

أجابه القائمقام: الإمضاء وكرامة.

فأتوا بالإنكليز إلى منزل وقتي أقاموه على شاطئ النهر فصادفوا هناك؛ السوَّاحَ، حسن الالتفات والاهتمام ومؤنة غزيرة، وهناك سطر بالعبارات الآتية الشهادة المدرجة اليوم في سجلات شركة لندرة الجغرافية:

«نحن المدونة أسماؤنا بذيله نشهد أننا بتاريخه شاهدنا في الفلاة العلَّامة فرغوسن ورفيقيه ريشار كنادي ويوسف ولصون واصلين إلينا وهم متمسكون بعرى شبكة قبة هوائية، وأن القبة المذكورة قد سقطت بالقرب منا على مسافة بعض خطوات في مجرى النهر، وجرها الغدير إلى شلالات غوينا؛ فهناك ابتلعتها الوهدة ولم يعد يُرى لها أثر ولا عين؛ فشهادةً بالواقع حررنا هذه الوثيقة وأمضيناها مع المذكورين للمصادقة تحريرًا عند شلالات غوينا في 24 أيار سنة 1862»:

فرغوسن صموئيل، ريشار كنادي، يوسف ولصون، دي فراس قائمقام، مشاة البحرية، رودامل بيرقدار السفينة.

ومن الأنفار:

فيلبو، بليسيه، رسكانيه ، مايور، لوروا، غويليون، لبال.

فهنا قد انتهت سياحة العلَّامة فرغوسن ورفيقيه الصنديدين العجيبة الثابتة بشهادة من لا ترد شهادتهم، وكانوا هناك برفقة خلَّان في بهرة قبائل أوفر أنسًا من تلك التي اجتازوا بها، ولها علاقات كثيرة مع المحلات الفرنسية.

وكان وصولهم سنغال يوم السبت الواقع في 24 أيار، وفي 27 منه وصلوا إلى محط العسكر في مدين الواقع على شاطئ النهر نحو الشمال.

وهناك استقبلهم الضباط الإفرنسيون بمزيد الترحاب والإعزاز وأبدوا نحوهم واجبات الضيافة على ما كان في مكنتهم، فتمكن العلَّامة ورفيقاه من السفر بحرًا عقب برهة وجيزة في بارجة يقال لها البازيليك، وكانت تسير في نهر سنغال قاصدة مصبه وعقب خمسة عشر يومًا أي في 10 حزيران بلغوا إلى سان لويس حيث استقبلهم الوالي استقبالًا فاخرًا، وقد كانوا استراحوا غاية الاستراحة من أتعابهم وأهوالهم، أما يوسف فكان يجاوب من يسأله عن سياحته: إن سياحتنا أذل السياحات فمن رغب بالأمور المعجبة لا أشير عليه بأن يباشر مثلها؛ لأنها تمسي في آخر الأمر مملة، ولولا ما صادفناه من الخطوب في بحيرة شاد ونهر سنغال لمتنا ضجرًا.

وكانت بارجة إنكليزية على أُهْبَةِ الاستعداد للسفر فركبوها، وفي 23 غرة حزيران بلغوا إلى بورتسموث وفي اليوم التالي أقبلوا إلى لندرة.

فلا حاجة إلى وصف الترحاب والإعزاز اللذين استقبلتهم بهما الشركة الجغرافية الملوكية؛ فإن ذلك يفوق وصف الواصفين، فسافر كنادي في الحال إلى أديمبورج ومعه قرابينته الشهيرة فأسرع إلى خادمته القديمة يخبرها عن وصوله بالسلامة.

أما العلَّامة فرغوسن ويوسف أمينه فلم يزالا على أحوالهما المعروفة، إلّا أنه قد حدث فيهما تغير لم يدريا به وهو أنهما قد ارتبطا مذ ذاك بحبل الصداقة المتين.

ولم تكف جرائد أوربا عن نشر عبير الثناء الجميل على أولئك السوَّاح الجزيلي الشجاعة؛ أمَّا جريدة الدايلي تلغراف فقد أنفقت نحو 3377 ألف نسخة يوم نشرت خلاصة سياحتهم.

وقد خطب العلَّامة فرغوسن خطبة أنيقة في جلسة عمومية عقدتها الشركة الجغرافية الملوكية، روى فيها قصة سياحته في القبة الهوائية، ونال له ولرفيقيه نيشان الذهب المعد جائزة لأشهر السياحات التي بوشرت سنة 1862.

فأوَّل ما حصل العلَّامة فرغوسن من نتائج سياحته هو أنه قد حقق تحقيقًا راهنًا الحوادث والاكتشافات الجغرافية التي أتى بها برث وبورتون وأسبيك وغيرهم.

وكذلك قد قرب اليوم الذي نتمكن فيه من تحقيق اكتشافات العلَّامة فرغوسن في الأصقاع الوسيعة الواقعة في ما بين الدرجة الرابعة عشرة من الطول، والثالثة والثلاثين منه، وذلك سندًا على اكتشافات الساعين الآن

بها؛ أي أسبيك وغرنت ودي هوكلين وموزنجر بصعودهم إلى ينابيع النيل وولوجهم أواسط إفريقية، وعليه لا يعود ذلك القسم الكبير من الكرة مجهولًا لدى ذوي المعارف كما كان في الأيام السالفة لسوء حظ سكانه المنفصلين عن باقي بني آدم كأنهم ليسوا من جنسهم ولا إخوة لهم.

الفهرس

الفصل الثالث والعشرون

في مناقشة فلسفية وظهور السحابة في الأفق وظهور قبة ثانية ومشاهدة آثار قافلة وبئر ماء في الصحراء

الفصل الرابع والعشرون

في العطش وتندم العلَّامة وانطفاء القصبة ومراقبة الصحراء الشاسعة وانفراد العلَّامة وسقطته وما نواه يوسف من القصد الثابت

الفصل الخامس والعشرون

في اشتداد الحرارة وفروغ آخر نقطة من الماء وليالي اليأس ومحاولة ديك قتل نفسه وهبوب السموم

الفصل السادس والعشرون

في الليلة المبهجة وقصة جمس أبروس وانخفاض البارومتر وطلوعه والتأهب للرحيل وثوران الزوبعة

الفصل السابع والعشرون

في رأي أحد علماء الفرنسيس والمرور بمملكة أداموفا وجبال أتلنتيكا ونهر بنوه ومدينة يولا وجبل باجلة وجبل منديف

الفصل الثامن والعشرون

في مدينة مصفية وسجود أحد المشائخ للقبة الهوائية والكلام عن السواح دنهام وكلابرتون وودني وفوجل وما كان من الحمام المشعلة نارًا المرسلة من والي قرناق

الفصل التاسع والعشرون

في الارتحال في الليل والكلام عن نهر الشاري وبحيرة شاد ومائها وفرس النهر وإطلاق الرصاصة عليه عبثًا

الفصل الثلاثون

في عاصمة البرنو وظهور البواشق ومنازعتها المنصورة وما أظهر يوسف من الغيرة الخالصة عند انخراق غطاء القبة

الفصل الحادي والثلاثون

في ظنون السواح وإصلاح موازنة القبة الهوائية وحساب العلَّامة وصيد الصياد والاستقراء في بحيرة شاد

الفصل الثاني والثلاثون

في الزوبعة الشديدة وما انشغل به الرفيقان من الفكرة المكدرة وهبوب الريح المضادة والموافقة والرجوع إلى الجنوب

الفصل الثالث والثلاثون

في قصة يوسف وما كان من عبادة الإفريقيين لهُ ووصوله إلى أرياف البحيرة وسفره راجلًا ومكابدته المشقة والتعب والجوع ومرور المنصورة وارتحالها ويأسه وصراخه الأخير

الفصل الرابع والثلاثون

في ما كان من العربان المجتمعين وملاحقتهم لأحد المهزومين وقتل الصياد عربيًا برصاصة وانتشال يوسف من الأرض بصناعة وحرفة

الفصل الخامس والثلاثون

في طريق الغرب ويقظة يوسف وعناده وتتمة قصته ووصول السواح إلى تجلة وقلق الصياد واتجاه المنصورة نحو الشمال

الفصل السادس والثلاثون

في سرعة سير المنصورة وفي الأعمال الصادرة عن حكمة وفي الأثقال وفي الأمطار المتراكمة وفي غاو والنهر الأسود والسواح كلبري وجوفروا وغراي ومونغوبرك ولينك وراني كالية وكلابرتون وجون ريشار لندر

الفصل السابع والثلاثون

في البلاد التي في عرجات النهر الأسود وفي منظر جبال أومبري الغريب وفي كابرة وتمبوكتو ورسم المعلم برث وسقوط المدينة عن رونقها القديم والسير على رحمة الهواء

الفصل الثامن والثلاثون

في قلق العلَّامة فرغوسن وفي الجراد وفي انقلاب الريح

الفصل التاسع والثلاثون

في دنو السواح من سنغال وفي ازدياد المنصورة انخفاضًا وفي الدرويش الحجي وبسكال ومنصور ولبرتوس والجبال الشاهقة وسلاح ديك ولباقة يوسف والوقفة فوق غاب

الفصل الأربعون

في المنازعة بينهم على الشهامة وآخر رزئهم وآلة التفسيح ولباقة يوسف وما جرى نصف الليل وهجعة العلَّامة وهجعة كنادي وتناعسه والحريقة والضجيج والعويل وأخطاء طلقات الرصاص

الفصل الحادي والأربعون

في جماعة الطلبة ومطاردتهم السواح واعتدال الريح وانخفاض المنصورة وآخر مؤنتهم ودفاعهم بطلق البنادق ونهر سنغال وشلالات غويني والهواء الحار وأمجاز النهر

الفصل الثاني والأربعون

في الختام والتقرير والعمائر الفرنسية ومعسكر مدين ومدينة القديس لويس والبارجة الإنكليزية وعودة السوَّاح إلى لندرة

صدر من سلسلة كتاب الدوحة

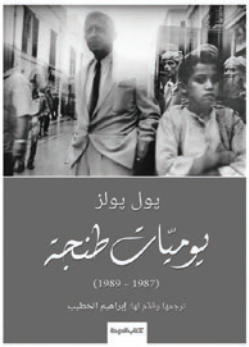
1	طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2	برقوق نيسان	غسان كنفاني
3	الأئمّة الأربعة	سليمان فياض
4	الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5	الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6	شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7	صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8	نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9	حرّية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10	الغربال	ميخائيل نعيمة
11	الإسلام بين العلم والمدنيّة	الشيخ محمد عبده
12	أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
13	امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر حداد
14	الشيخان	طه حسين
15	ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16	يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17	عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18	عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19	رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20	لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21	ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22	في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23	الكتابات السياسيّة	الإمام محمد عبده
24	نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي
25	تاريخ علم الأدب	روحي الخالدي
26	عبقرية خالد	عباس محمود العقاد
27	أصوات الضمير	خمسون قصيدة من الشعر العالمي
28	مرايا يحيى حقي	يحيى حقي
29	عبقرية محمد	عباس محمود العقاد
30	عبدالله العروي من التاريخ إلى الحب	حوار أجراه محمد الداهي
31	فتاوى كبار الكتّاب والأدباء في مستقبل اللّغة العربيّة	
32	عام جديد بلون الكرز (مختارات من أشعار ونصوص مالك حداد)	ترجمة: شرف الدين شكري
33	سِراج الرُّعاة (حوارات مع كُتاب عالميّين)	خالد النجار
34	مقالة في العبودية المختارة (إيتيان دي لابويسيه)	ترجمة: مصطفى صفوان
35	عن سيرتَي ابن بطوطة وابن خلدون	د.بنسالم حِمّيش
36	حي بن يقظان - تحقيق: أحمد أمين	ابن طفيل
37	الإصبع الصغيرة - ترجمة: د.عبدالرحمن بوعلي	ميشال سار
38	محمد إقبال - مختارات شعرية	محمد إقبال
39	تزفيتان تودوروف (تأمُّلات في الحضارة، والديموقراطية، والغيرية)	ترجمة: محمد الجرطي
40	نماذج بشرية	أحمد رضا حوحو

41	الشرق الفنّان	د.زكي نجيب محمود
42	تشيخوف - رسائل إلى العائلة	ترجمة: ياسر شعبان
43	إلياس أبو شبكة "العصفور الصغير"	مختارات شعرية
44	لماذا تأخر المسلمون؟ ولماذا تقدم غيرهم؟	الأمير شكيب أرسلان
45	مختارات من الأدب السوداني	علي المك
46	رحلة إلى أوروبا	جُرجي زيدان
47	المُعتمدُ بنُ عبّاد في سنواته الأخيرة بالأسر	د.عبدالدين حمروش
48	تاريخ الفنون وأشهر الصور	سلامة موسى
49	من أجل المسلمين	إيدوي بلينيل - ترجمة: عبداللطيف القرشي
50	زينة المعنى (الكتابة، الخط، الزخرفة)	يوسف ذَنّون
51	الواسطة في معرفة أحوال مالطة	أحمد فارس الشدياق
52	النخبة الفكرية والانشقاق	د. مُحسن الموسوي
53	ياسمينة وقصص أخرى	إيزابيل إيبرهاردت
54	آباي (كتاب الأقوال)	ترجمة وتقديم: بوداود عمير
55	مأساة واق الواق	ترجمة: عبدالسلام الغرياني
56	بين الجزْر والمدّ (صفحات في اللّغة والآداب والفنّ والحضارة)	محمد محمود الزبيري
57	ظلّ الذّاكرة (حوارات ونصوص من أرشيف «الدوحة»)	مي زيادة
58	الرحلة الفنّية إلى الديار المصرية (1932) تحقيق: رشيد العفاقي	قسم التحرير «مجلّة الدوحة»
59	قيصر وكليوبترا	أليكسي شوتان -تعريب: عبد الكريم أبو علو
60	الصين وفنون الإسلام	إسماعيل مظهر
61	براعمُ الأمل (مُختارات شِعْريّة للكاتب الصيني وانغ جو جن)	ترجمة: مي عاشور
62	التّوت المُرّ	محمد العروسي المطوي
63	درب الغريب	غونار إيكليوف
64	من والد إلى ولده	أحمد حافظ بك
65	التلـــميذ	بول بُورجيه
66	ملحَمة جلجامِش	تقديم وترجمة: طه باقر
67	أريجُ الزّهر	الشيخ مصطفى الغلاييني
68	اعترافات إنسان	محمّد فريد سيالة
69	مريود	الطيب صالح
70	المقالات الصحفية	عبدالله كنون
71	قصص قصيرة	نجيب محفوظ
72	بول بولز - يوميات طنجة	إبراهيم الخطيب
73	فنّ الحَياة	سلامة موسى
74	أَقْوَمُ الْمَسَالِكِ فِي مَعْرِفَةِ أَحْوَالِ الْمَمَالِكِ	خير الدين التونسي
75	كتاب الأخلَاق	أحمد أمين
76	رِحْلَةٌ جَبَلِيَّةٌ رِحْلَةٌ صَعْبَة	فدوى طوقان
77	قِطافٌ (مُختَارَات مِن اَلْقِصَّةُ الْقَصِيرَةُ فِي قَطَر)	مجموعة من الكتاب
78	الرحلة الجوية في المركبة الهوائية (من شرقي إفريقية إلى غربيها) الجزء الأول	المؤلف: جول غابرييل فرن، ترجمة: يوسف اليان سركيس

من إصدارات سلسلة كتاب الدوحة

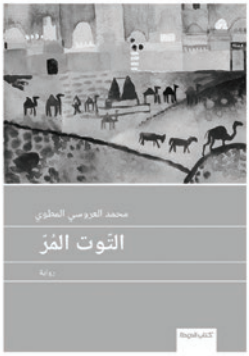












«لما كان اليوم الخامس عشر من شهر يناير/ كانون الثاني سنة ألف وثمانيمائة واثنتين وستين أذاعت الصحيفة الإنجليزية المعروفة باسم «دايلي تلغراف» النبذة الآتي ذكرها:

إنه عن قريب ستنجلي للعيان غيوم الظلام التي تستر عن الخاص والعام ما في بطون إفريقية وأقفارها الشاسعة من الأسرار والخبايا والكنوز والخفايا، ولطالما جد في اكتشافها العلماء والسياح وبذلوا وسعهم في الدخول إلى تلك الأقاليم والبطاح، وفي الأيام السالفة كان يُعَدّ ضرباً من الجنون والخرافات التشجيع على الرحيل بقصد اكتشاف عيون النيل...».

صدر هذا الكتاب عام 1863، بعنوان ««خمسة أسابيع في منطاد»، وهو الإصدار الأول للأديب الفرنسي الشهير «جول غابرييل فيرن» (1828 - 1905)، رائد أدب الخيال العلمي الحديث الذي تنبأ في رواياته بمخترعات علمية كثيرة طبعت القرن التاسع عشر.

في هذه التحفة الأدبية، التي تعيد مجلة الدوحة إحياءها في جزأين ضمن سلسلة كتاب الدوحة المجاني، دوّن فيرن مغامراته الاستكشافية في إفريقية، ولاقت، عند صدورها، نجاحاً لم يكن متوقَّعا عند الفرنسيين، فشكّلت في زمنها تذكرة سفر نحو قارة مجهولة بالنسبة للأوروبيين عامة. وقد نُشرت الترجمة العربية الأولى في بيروت عام 1875 بعنوان «الرحلة الجوية في المركبة الهوائية».